الجزء ١ المجلد ٧

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق : كانون الثاني سنة ١٩٢٧ م الموافق رجب سنة ١٣٤٥ هـ)

المجمع العلمي العربي

« في سنة ١٩٢٦ »

الرئيس : السيد محمد كرد علي

« الاعضاء »

	السادة :	محل الاقامة
١	اسعد الحكيم	دمشق
٢	انيس سلوم (عامل)	«
٣	بهجة البيطار	«
٤	خليل مردم بك	«
٥	رشيد بقدونس	«
٦	سليم البخاري	«
٧	سليم الجندي	«
٨	سليم عنحوري	«
٩	شفيق جبري	«
١٠	عارف النكدي	«
١١	عبد القادر المبارك	«
١٢	عبد القادر المغربي (عامل)	«
١٣	عبد الله رعد	دمشق
١٤	فارس الخوري	«
١٥	مرشد خاطر	«
١٦	مسعود الكواكبي	«
١٧	مصطفى الشهابي	«
١٨	ابراهيم منذر	بيروت
١٩	امين الريحاني	«
٢٠	بولس الخولي	«
٢١	جبر ضومط	«
٢٢	شكيب أرسلان	«
٢٣	عبد الباسط فتح الله	«

« الاعضاء »	محل الاقامة
٢٤ عبد الرحمن سلام	بيروت
٢٥ عبد الله البستاني	〃
٢٦ فيليب حتي	〃
٢٧ فيليب طرازي	〃
٢٨ لويس شيخو	〃
٢٩ عيسى اسكندر المعلوف	زحلة
٣٠ احمد رضا	النبطية
٣١ جرجي بني	طرابلس الشام
٣٢ سليمان احمد	اللاذقية
٣٣ ادوارد مرقص	〃
٣٤ محمد زين العابدين	انطاكية
٣٥ بدر الدين النعساني	حلب
٣٦ جرجس شلحت	〃
٣٧ جرجس منش	〃
٣٨ راغب الطباخ	〃
٣٩ عبد الحميد الجابري	〃
٤٠ عبد الحميد الكيالي	〃
٤١ قسطاكي الحمصي	〃
٤٢ كامل الغزي	〃
٤٣ ميخائيل الصقال	〃
٤٤ اسعاف النشاشيبي	القدس

« الاعضاء »	محل الاقامة
٤٥ سعيد الكرمي	طول كرم
٤٦ رضا الشبيبي	النجف الاشرف
٤٧ امين المعلوف	بغداد
٤٨ انستاس الكرملي	〃
٤٩ جميل صدقي الزهاوي	〃
٥٠ عز الدين علم الدين	〃
٥١ كاظم الدجيلي	〃
٥٢ معروف الرصافي	〃
٥٣ احمد الاسكندري	القاهرة
٥٤ احمد تيمور	〃
٥٥ احمد زكي	〃
٥٦ احمد عيسى	〃
٥٧ اسعد خليل داغر	〃
٥٨ رشيد رضا	〃
٥٩ عباس محمود العقاد	〃
٦٠ محمد الخضر حسين	〃
٦١ يعقوب صروف	〃
٦٢ زكي مغامز	الاستانة
٦٣ حسن حسني عبدالوهاب	تونس
٦٤ محمد بن ابي شنب	الجزائر
٦٥ محمد أجمل خان	الهند

***

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

« الاعضاء »		محل الاقامة
٦٦ مارسيه	Marçais	تونس
٦٧ ماسه	Massé	الجزائر
٦٨ كي	Guy	ازمير
٦٩ ميشو بيلير	Michaux-Bellaire	طنجة
٧٠ هوار	Huart	باريز
٧١ فران	Ferrand	«
٧٢ دوسو	Dussaud	«
٧٣ ماسينيون	Massignon	«
٧٤ بوفا	Bouvat	«
٧٥ جويدي	Guidi	ايطاليا
٧٦ نالينو	Nallino	«
٧٧ آسين	Asin	اسبانيا
٧٨ لوبس	Lopès	البرتقال
٧٩ مونته	Montet	سويسرا
٨٠ هيس	Hess	«
٨١ سنوك هورغرن	Snouck-Hurgronje	هولانده
٨٢ هوتسما	Houtsma	«
٨٣ اراندونك	Arendonk	«
٨٤ مرجليوث	Margoliouth	انكلترا
٨٥ بفن	Bevan	«
٨٦ هومل	Hommel	المانيا
٨٧ ساخاو	Sachau	«
٨٨ بروكلن	Brockelmann	«
٨٩ هوروفيتز	Horovitz	«

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

	« الاعضاء »	محل الاقامة
٩٠ هرزفلد	Herzfeld	المانيا
٩١ هارتمان	Hartmann	〃
٩٢ ميتفوخ	Mittwoch	〃
٩٣ سترستن	Zetterstéen	السويد
٩٤ اوستروب	Œustrup	الدانيمارك
٩٥ بول	Buhl	〃
٩٦ پدرسن	Pedersen	〃
٩٧ موجيك	Mzik	النمسا
٩٨ ماهلر	Mahler	المجر
٩٩ كوفالسكي	Kowalski	بولونيا
١٠٠ كراتشقوفسكي	Kratchkovsky	روسيا
١٠١ موزل	Musil	تشيكوسلوفانيا
١٠٢ ماكدونالد	Macdonald	اميركا
١٠٣ كرسيكو	Karsikko	فنلاندا [1]

(١) والاعضاء الذين فقدهم المجمع هم المرحومون : الشيخ طاهر الجزائري في دمشق · والسيد نخله زربق في القدس · والسيد اغناطيوس غولدصهير في بودابست والسيد مرتين هارتمان في برلين · والسيد رينه باسه في الجزائر · واحمد كمال باشا والسيد مصطفى لطفي المنفلوطي في القاهرة · والسيد محمود شكري الالوسي في بغداد · والسيد غريفيني والسيد رفيق العظم في القاهرة · والسيد حسن بيهم في بيروت · والدكتور صالح قنباز في حماة · والسيد مالنجو والسيد الياس القدسي في دمشق · والسيد براون في كمبريج · أجزل الله ثوابهم ·

سهل بن هرون

« منبته ونسبه » : — ولد سهل بن هرون [٢] في مدينة مَيْسان بين واسط والبصرة وفي رواية في دَسْتُمَيسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، في أواخر النصف الاول من القرن الثاني تقديراً ، ولا يعرف من نسبه الا انه سهل بن هرون بن راهيون (راهبون) وكنيته ابو عمرو ، فارسي الجنس ، أهوازي اوخوزي المولد ، عراقي المنشأ . تحول الى البصرة في سن لم تعرف ، وكانت البصرة اذ ذاك مدينة العلم في الدولة الاسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كله ، او كما قيل فيها « قبة الاسلام وخزانة العرب » ، حوت من حصائل العلم الانساني اصوله وفروعه ، ومن القائمين على تنميته مصاقعه وفحوله ، فغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقله بما اقبسته من نور معارفها ، فخرج بعلمائها ، ولا شك انهم كانوا طبقة عالية جداً ، في كل مطالب من مطالب الآداب .

وكانت البصرة بل المملكة الاسلامية أخذت في تلك الحقبة ، تمازج فيها مدنية العرب بمدنية الفرس والروم والهند ، وبدأت المذاهب الفلسفية تتسرب في المجتمع الاسلامي ، وعلماء الامة يتعاورهم الجزر والمد على شاطيء بحر الحكمة القديمة ، شأن

---

(١) محاضرة السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي ألقاها في ردهة المجمع يوم ٣ كانون الاول سنة ١٩٢٦ . (٢) لم يترجم لسهل بن هارون القفطي في اخبار الحكماء ، ولا ابن خلكان في وفيات الاعيان ، ولا البيهقي في حكماء الاسلام ، ولا السمعاني في الانساب ، ولا ابن الانباري في طبقات الادباء . وترجم له تراجم موجزة كل من الصفدي في الوافي بالوفيات والصلاح الكتبي في فوات الوفيات وفي عيون التواريخ ، وابن نباتة في شرح رسالة ابن زيدون وابن بدرون ، في شرح قصيدة ابن عبدون ، والثعالبي في المضاف والمنسوب . وترجم له كرامر الهولاندي من علماء المشرقيات في المعلمة الاسلامية ، واقتصر على ماقاله المترجمون فيه وفاته انه كان من رجال الرشيد وقال انه لم يجتمع بالجاحظ مع ان الجاحظ يروي عنه كثيراً في كتبه المطبوعة .

مدينة البصرة مع خليجها ، يمد ماؤها ويجزر على الدوام ، وما زالوا هذا حالهم يغوصون في بحار الافكار حتى أخرجت عقولهم درراً غريبة ، كما يخرج بحرهم الجواهر واللآلي الثمينة النادرة . وكانت النفوس حريصة على الدين الذي دوّن وحرر ، راغبة كل الرغبة في الاخذ مما لا عهد لها به من علوم الامم السالفة . وفي هذا المحيط انبعث عقل سهل بن هرون لاول امره ، في ارض صالحة لانماء العقل واطلاقه من قيوده ، ولم يُعرف اذا كان سهل رحل الى الروم وفارس والشام ومصر ، والغالب انه لم تتعد تنقلاته مدينة الرقة قصبة ديار مضر ، والرصافة رصافة هشام في اول تخوم الشام ، واكتفى بالبصرة وبغداد . وجميع هذه المدن الاربع الرُّصافة والرَّقة وبغداد والبصرة هي من بناء العرب . وكانت بغداد أجمل مدن الارض في ذاك العصر ، وفيها كل شيءٍ جديد سواء أكان ذلك في خططها ومرافقها ، او في عقول اهلها ونبوغ علمائها ، يُحمل اليها من الآفاق بدائع ماصنع البشر ونتجت عقولهم . والدول سوق يحمل اليها مايروج فيها .

لا نعلم على التحقيق منشأ والد سهل ، ولا مظهره ومذهبه ، ولا أصل أم سهل وتربيتها ، ولا معلميه في بلده ، ولا أساتيذه في البصرة ، ولا أترابه ولداته في صباه ، ولا غير ذلك من العوامل التي لها الشأن الاكبر في تربية الملكات ، وتلقين الاخلاق والعادات . يُنشَّأ عليهما الفتى فتطبع حياته بطابع خاص ، تتعذر في عقود العمر الآخرة إحالتها واستحالتها . بيد انه من المعقول ان يكون قانون الوراثة اورثه جراثيم دم الفرس وحكمتها ونظامها وأدبها ، وضم اليها الثقافة العربية فجاءت منازعه خليطاً نافعاً ، ومداركه متينة رصينة .

أضف الى هذا ان مملكة بني العباس كانت سيدة الممالك ، على ما كانت البصرة سيدة البلاد بصفائها ودمائها ، وقوتها وعزتها ، وربما كان العصر الذي نشأ فيه سهل ابن هرون أجمل عصور التاريخ ، والمُلك موحَّد من المغرب في شمالي افريقية الى حدود الشرق ، وليس في الارض حكومة اسلامية غير الاندلس بيد بني مروان : لا غوائل ولا فتن في الداخل والخارج ، يشتمل الناس على السلامة ، ويغتبطون بما أوتوا في سلطان بني هاشم ، وكلما نجم ناجم من العلويين او غيرهم كانت جيوش العباسيين تقضي عليه لساعته ، فضعف المنازعون الى منازعة الخوالف حبلَ السلطة .

وغدت ممالك الشرق والغرب تتنافس في رضا خليفة العرب ، والملك من ملوك آسيا واوربا اذا تيسر لقاصده او سفيره ان يتشرف بالحضرة حضرة بني العباس ، يسعد ويعتز في سلطانه ، وعدّ ذلك نعمة حازها دون أقرانه ٠

« مذهبه وأخلاقه » : — قيل ان سهل بن هرون كان شيعياً ، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه ان تنقص احداً من الصحابة الكرام ، بلي عرف بالاعتدال مع الأموات اعتداله مع الاحياء ، وما أثر عنه انه خاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها اذذاك ، ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد ٠ واتهموه بانه كان من الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العجم فضلاً ، واذا صحت هذه التهمة فمن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعوبية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذي فُسر به بعد قرون ٠

والشعوبي منسوب الى قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم » ٠ ونشأ مذهب الشعوبية على الأرجح بُعَيد عصر الخلفاء ، باشتداد قوة التجاذب والتدافع بين أرباب العصبيات ، وكان من أثر ذلك التفاخر بالجنس الذي جاء الاسلام بابطاله ، ولو كان للجنس يفضل المرء في الامة ، ما نزل سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي من الرسول تلك المنزلة العالية ٠ والدين لا يفاضل الا بالتقوى ٠ على ان أعظم من كانوا يكيدون للعرب بالشعوبية السَّفِلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى ، لا أشراف العجم وذوو الاخطار واهل الديانة ، على ما رأى ابن قتيبة ٠ اذا عرفت هذا فادفع عن سهل دعوى الشعوبية ، غير خائف ولا متلجلج ، فاعتداله يمنعه الا ان يقدر لكل عنصر خصائصه ، وهو لم يعدّ رجلاً مذكوراً الا بالاسلام ، والأخذ عن علماء العرب ، ورقي في مظاهر الدنيا حتى وصل الى أعظم خلفاء العباسيين هرون الرشيد وعبدالله المأمون ٠ وكان بفضل العلم احد أئمة البيان والحكمة في الامة العربية ، ودعي لحكمته وعقله بُزرجمهر الاسلام ٠ وبُزرجمهر وزير انو شروان العادل ، من ملوك آل ساسان ، اشتهر بالعدل والحكمة ٠

وصفه الجاحظ فقال : كان سهل سهلاً في نفسه ، عتيق الوجه ، حسن الشارة ، بدأ من الفدامة ، (العي) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة ،

قبل الخبرة ، و برقة الذهن ، قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب ، قبل الامتحان، و بالنبل ، قبل التكشف (الظهور) . وكان الجاحظ مازجه وثافنه . وقيل للحراني ولعله ابراهيم ابن ذكوان كاتب الهادي ووزيره : بينك وبين سهل بن هرون صداقة فانعته لنا كي نعرف فقال : هو كالخبير ، وازن العلم ، واسع الحلم ، ان حودث لم يكذب ، وان موزح لم يغضب ، كالغيث اين وقع ، نفع ، وكالشمس حيث أولت ، أحيت ، وكالارض ما حملتها حملت ، وكالماء طهور لمتمه ، وناقع لغلة من أحرّ اليه ، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالنسم ، وكالنار التي يعيش بها المقرور ، وكالسماء التي قد حسنت باصناف النور اه . صورتان جميلتان في وصف سهل صورهما مصوران مبدعان ، عاشا بقربه وفتنهما بخلقه وخُلقه .

واتهموا سهل بن هرون بالبخل وأوردوا له قصصاً ونوادر ، وعده الجاحظ من « متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء » قال : ما علمت ان احداً جرد في البخل كتاباً الا سهل بن هرون وابا عبد الرحمن الثوري . والبخل في الفرس غالب في الجملة ، غلبة الكرم على طبائع العرب . فاقتضى ذلك التفريط الذي رآه سهل في تبذير العرب ، ان يدلي لقومه بآرائه المفرطة في الاقتصاد والإمساك . وماشوهد قط تفريط الا والى جانبه إفراط . وربما كان اتهامه بالبخل مبالغاً فيه تُراد به النكتة والنادرة .

حكى الجاحظ قال لقي رجل سهل بن هرون فقال : هب لي ما لا ضرر به عليك فقال : وما هو يا اخي . قال : درهم . قال : لقد هوّنت الدرهم وهو طائع الله في ارضه لا يعصي ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المئة ، والمئة عشر الالف ، والالف دية المسلم ، ألا ترى الى اين انتهى الدرهم الذي هوّنته . وهل بيوت الاموال الا درهم على درهم . فانصرف الرجل ولولا انصرافه لم يسكت .

وحكى دعبل الخزاعي الشاعر قال : أقمنا يوماً عند سهل بن هرون ، وأطلنا الحديث حتى أضرّ به الجوع ، فدعا بغدائه ، فأُتي بصحفة فيها مرق تحته ديك هرم ، فأخذ كسرة وتفقد مافي الصحفة ، فلم يجد رأس الديك ، فبقي مطرقاً ثم قال للغلام : اين الرأس قال : رميت به قال : ولِمَ قال : لم أظنك تأكله قال : ولِمَ ظننت ذلك فوالله اني لأمقت من يرمي برجله فكيف برأسه ، ولو لم أكره ما صنعت الا للطيرة

والفأل لكرهته ، اما علمت ان الرأس رئيس ينفاءل به وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح لديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذي يتبرك به ، وعينه التي يضرب بصفائها المثل فيقال شراب كعين الديك ، ودماغه عجب لوضع الكلية ، ولم أر عظماً قط أهش تحت الاسنان منه ، وان كان بلغ من نُبلك انك لا تأكله ، فعندنا من يأكله ، او ما علمت انه خير من طرف الجناح ومن رأس العنق، انظر اين رميته ، فقال : والله ما أدري قال : انا والله أدري انك رميت به والله في بطنك فالله حسيبك .

ولما صنف سهل كتابه في البخل أهداه للحسن بن سهل واستماحه فكتب اليه الحسن : قد مدحت ما ذمه الله ، وقبحت ما قبحه الله ، وما يقوم بفساد معناك صلاح لفظك ، وقد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك ، فما نعطيك شيئاً . والحسن بن سهل وزير المأمون كان فارسياً ايضاً ، ولكنه في الجود آية الآيات . والطبائع ارثية وللنشإ والعادة دخل كبير فيها ، ومع كل هذا فقد صح من شعر سهل قوله :

وما العيش الا ان تجود بنائل والا لقاء الاخ بالخلق العالي

ومن يقول هذا الشعر ، ويقصد هذا المعنى ، لا يكون من البخل على ماوصفوا ، ومن أفاد مالاً فادخره الى الايام السود ، كان في احتياطه على مثال ابناء البلاد الباردة الذين قد يذخرون مؤونتهم سنتين وثلاثاً اما اهل البلاد الحارة فلا يفكرون الا في اليوم الذي هم فيه على الأعم الأغلب من حالاتهم . وقال غولدصهير المجري : ان تمدح ابن هرون بالبخل ، نزغة من نزغات الشعوبية ، أراد بمدحه الحط من قدر العرب الذين جعلوا الكرم من مفاخرهم الوطنية .

« طريقته في الكتابة وتآليفه » : — ان رجلاً يفضله الجاحظ و يصف براعته وحصافته ، ويحكي عنه في كتبه ، و يظهر إعجابه به اذا ذكر ، و يروي حديثه ومجالسه ، هو ولا شك المثل الاعلى في صنوف العلم والآداب ، بلغ الذروة فيما تفرد به واشتهر بمعرفته ، وكان اهل عصره مجمعين على الاقرار بفضله ، قلما يداخلهم الحسد له ، فكان منقطع القرين في فنه ، نابغة في العلم الذي يمت به ، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ وهو في البلاغة يجري مع سهل كفرسي رهان ، وفي العلم والعقل المثل

المضروب ، كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، فينسبه الى نفسه فلا يرى الاسماع تصغي اليه ، ولا الارادات تيمم نحوه ، ثم يؤلف كما قال عن نفسه ، ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة ، فينحله عبد الله بن المقفع او سهل بن هرون او غيرهما من المتقدمين ، ومن طارت اسماؤهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها و يسارعون الى نسخها . وطريقة سهل في كتابته طريقة امير المؤمنين علي بن ابي طالب لا يتكلف لكلامه فلا يشاهد فيه الناقد اثر التعمد ، بل لا يكلف بغير ارسال النفس على سجيتها فهو وابن المقفع والجاحظ من غرار واحد . وقيل ان سهلاً كاتب سلاطين والجاحظ مؤلف دواوين . وكأن كلامه نغمة موسيقية تعرف انتهاء جملته من رنتها ، بعد ان ملكت عليك مشاعرك ، وأدخلت السرور على نفسك ، لا يحفل بالاسجاع الا اذا جاءت عفو الخاطر ، شأن بلغاء الصدر الاول . ولا يتعمد الجزالة الا اذا اقتضى الموضوع ذلك ، وقلما خلا قوله من نكتة تحمدله وتحمل عنه . وكأنك في انشاء سهل تقرأ المعنى قبل اللفظ ، وما تنفع القوالب اذا لم يكن علم الكاتب يملي ، والمظاهر والدساتير مستملية . ففي أسلوبه تقرأ التعلم ، وفي غيره تقرأ الفاظاً جميلة وقوالب محكمة ، وفي كلمه الطيب تقع على إشباع المعاني ، وتقطيع الجمل ، والابلاغ في المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السامع ، وتفعل البلاغة فعلها في نفسه من طريق الاقناع والبرهان لا من مجرى التقفية والزخرف ، وتوازن الكلمات ورنة الفقرات .

كان سهل يقول الشعر ، واكثر شعره مما أملاه قلبه ، في غرض خاص من أغراض المجتمع ، وعدّه الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والاخبار المدوّنة . ولقبه مرة بالكاتب ، ولعل لقب الكاتب في شرفه أكبر من عالم . وذكره ابن النديم في البلغاء وقال انه شاعر مقل ، وعده في الشعراء الكتاب وقال انه كان ممن يعمل الاسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم هو وعبدالله ابن المقفع وعلي بن داود كاتب زبيدة . وشعره خمسون ورقة . اما الدهشة ففي تآليفه فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والثعلب ، وكتاب اسباسيوس (اسانوس) في اتخاذ الاخوان ، كتاب اسد بن اسد ، كتاب سحرة العقل ، كتاب تدبير الملك والسياسة ،

كتاب الى عيسى بن ابان في القضاء ، كتاب الفرس ، كتاب الغزالين ، كتاب ندود وودود ولدود ، كتاب الرياض ، كتاب ثعلة وعفراء (وفي رواية ثملة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة قلده في أبوابه وأمثاله وقال المسعودي يزيد عليه اي على كليلة ودمنة في حسن نظمه وقد صنفه للمأمون . ومن تآليفه كتاب الهذلية والمخزومي ، كتاب الوامق والعذراء الى غير ذلك من المصنفات التي لم تبق الايام ويا للأسف على واحد منها فيما علمنا ، ومنها ما عارض به كتب الاوائل ، فجمعت الى الحكمة الفائقة البلاغة السرية الغريبة .

ولا تعجب اذا رأيت بضعة من تآليف سهل في القصص والاسمار ، فان من الناس من يتألم بالاحتيال عليه ، وصعب عليك ان تلقنه الثقافة العالية والاخلاق الفاضلة ، الا في قالب يميل اليه بجملته ، ظاهره هزل وإحماض ، وباطنه تعليم وإرشاد ، ومن أجل هذا كان هذا اللون من الأدب مما يلذ المطالع ويفيده علماً ، ويلقي عليه حكمة بالغة على نحو ما يفعل كبار القصصيين من اهل المدنية الحديثة . وكان حظ ابن المقفع في هذا الباب أجزل ، لان كتابه كليلة ودمنة الذي عربه من البهلوية اشتهر اكثر من اشتهار ثعلة وعفرة ، او غير ذلك من الاوراق التي كسرها على القصص ، ولا تدل اسماء كتبه على انه كتب في موضوع أشبه بدبني اللهم الا كتابه في القضاء ، اما كتابه في تدبير الملك والسياسة فدليل على انه قرن العلم بالعمل في هذا الفن السهل الصعب .

« حياته السياسية » : — لم نهتد الى زمن انتقال سهل من البصرة الى بغداد ، وسكت التاريخ عن عهد رحيله من مسقط رأسه ، وعن سنة ولادته ، وغاية ما ذكر في ترجمته انه كان مختصاً بالفضل بن سهل اخي الحسن بن سهل وزيري المأمون وان الفضل قدمه للمأمون ولكن كتب المحاضرات والتاريخ تقول ان سهلاً كان من رجال الرشيد ، وانه دخل عليه وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم زده من الخيرات ، وأبسط له من البركات ، حتى يكون في كل يوم من ايامه مربياً على امسه ، مقصراً عن غده . فقال الرشيد : يا سهل من روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحه

وأوضحه ، اذا رام ان يقول لا يجزه القول · فقال سهل : يا امير المؤمنين ما ظننت ان احداً تقدمني الى هذا المعنى · قال : بل أعشى همدان حيث يقول :

رأيتك امس خير بني لؤي ... وانت اليوم خيرٌ منك امس
وانت غداً تزيد الخير ضعفاً ... كذاك تزيد سادة عبد شمس

وهذا يدل على ان سهلاً اتصل بالرشيد ، والمأمون حدث صغير · وان سهلاً كان معروفاً برواية الشعر والحديث ايضاً · وقد شهد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧ وحدث فيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال ان سجاعي الخطب ومحبري القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى ولو كان كلام يتصور دراً ، و يحيله المنطق السري جوهراً ، لكان كلامها ، والمنتقى من لفظها · ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديهته وتوقيعاته في كتبه ، فدمين عيين ، وجاهلين أميين · ولقد عمرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين في ايامهم ، وهم يرون ان البلاغة لم تستكمل الا فيهم ، ولم تكن مقصورة الا عليهم ، ولا انقادت الا لهم ، وانهم محض الانام ولباب الكرام ، وملح الايام ، عتق منظر ، وجودة مخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة نفس ، وأكتمال خصال ، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل ايامهم ، والمأثور من خصالهم ، كثير ايام من سواهم ، من لدن آدم ابيهم ، الى النفخ في الصور وانبعاث اهل القبور ، حاشا أنبياء الله المكرمين واهل وحيه المرسلين ، لما باهت الا بهم ولا عولت في الفخر الا عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم وكريم أعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، و بهاء إشراقهم ، ونقاوة أعراضهم وتهذيب أغراضهم ، واكتمال خلال الخير فيهم الى ملء الارض مثلهم ، في جنب محاسن المأمون كالنفثة (التفلة) في البحر ، والخردلة في المهمه القفر » ·

وهذا الكلام على مافيه من حق في وصف البرامكة والرشيد والمأمون لا يخلو من مصانعة ، وفيه مبالغة فارسية لم تكد تعرفها العرب على هذا الوجه ، ومن الصعب ان يتجرد المرء عن كل أخلاقه ، ويخرج عن دمه الذي ورثه مهما عولج بالتعليم والتربية ·

شهد سهل هذه المأساة مأساة مقتل بني برمك وقال : ان الرشيد لما قتل جعفراً بعث اليه وكان معه في الرقة يحصل أرزاق العامة مع يحيى بن خالد — والرقة كانت

مصطاف الرشيد وكان يقول الدنيا اربعة منازل دمشق والرقة والريّ وسمرقند —
ولما حمل نبأ مقتل جعفر كان سهل بين يدي يحيى يكتب توقيعات في أسفل كتبه لطلاب الحوائج اليه قد كلفه إكمال معانيها باقامة الوزن فيها فلبس ثياب أحزانه لانه كان على صلة دائمة بالبرامكة قال: فلما دخلت على الرشيد ومثلت بين يديه عرف الذعر في تجريض ريقي، والتمايد في طريقي، وشخوصي الى السيف المشهور ببصري فقال: إيهاً يا سهل من غمط نعمتي، واعتدى وصيتي، وجانب موافقتي، أعجلته عقوبتي» قال: فوالله ما وجدت جوابها حتى قال: «ليفرخ روعك، وليسكن جأشك، وتطيب نفسك، وتطمئن حواسك. فان الحاجة اليك قربت منك وابقت عليك، بما يبسط منقبضك، ويطلق معقولك، فاقتصر على الاشارة دون اللسان، فانه الحاكم الفاصل، والحسام الناصل، وأشار الى مصرع جعفر وهو يقول:

من لم يؤدبه الجميل ففي عقوبته صلاحه

قال سهل: «فوالله ما أعلمني عييت بجواب احد قط غير جواب الرشيد يومئذ، فما عولت في شكره والثناء عليه الا على تقبيل يديه وباطن رجليه» ثم قال لي: «اذهب فقد أحللتك محل يحيى بن خالد ووهبتك ما ضمّنته أبنيته وحوى سُرادقه، فاقبض الدواوين واحص جباءه وجباء جعفر، لنأمرك بقبضه ان شاء الله. قال سهل: فكنت كمن نشر عن كفن، واخرج من حبس، فأحصيت جباءهما فوجدت عشرين الف الف دينار.

وبذلك تبينت منزلة سهل وكيف أصبح بعد يحيى البرمكي صاحب دواوين الرشيد ومع ما كان له من الإجلال في الصدور خاف يوم النازلة بالبرامكة وكانت البرامكة كما قال ابن خلدون من محاسن العالم، ودولتهم من أعظم الدول، وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها — ان تهمه القافية لصحبته لهم وامتزاجه بهم. وناهيك به يومئذ من موقف صعب، ولكن عقل الرشيد لاتعبث به الأهواء، ويضنّ بعظيم من رجاله لأسباب تافهة فأبقى على سهل بن هرون لانه من مفاخر الملة والدولة.
لا جرم أن سهل بن هرون كان في سياسته من حزب الحكومة او الحزب المعتدل،

تعزب فطرته عن التطرف ، ويرى المصلحة في التآلف ، ويعد الخروج عن سبيل الجماعة خروجاً عن الطاعة .

والغالب ان عشرة سهل مع الرشيد دامت حتى مات هذا سنة ١٩٣ . ولم يجر له ذكر في عهد الأمين مدة اربع سنين وثمانية اشهر وكسر فالتزم على ما يظهر بيته ، واعتزل الفتنة بين الامين والمأمون ، حتى اذا كانت الخلافة للمأمون أصبح سهل ابن هرون من خاصته، كما كان من خاصة ابيه الرشيد من قبل . وروى بعض الرواة ان المأمون كان استثقل سهل بن هرون . وقد دخل عليه يوماً الناس على مراتبهم فتكلم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فلما فرغ من اومه أقبل سهل ابن هارون على الجمع فقال : مالكم تسمعون ولا تعون ، وتشاهدون ولا تفقهون ، وتفهمون ولا تتعجبون ، وتتعجبون ولا تنصفون ؟ والله انه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل ، عربكم كعجمكم وعجمكم كعبيدكم ، ولكن كيف يعرف بالدواء من لا يشعر بالداء . فرجع المأمون فيه الى الرأي الاول . وفي ذلك ايضاً من حسن المأتى ولطف المدخل والمخرج ، ما يعرفه المبتلي بعشرة الملوك والعظماء ، ولا سبيل الى الدخول على اكثرهم الا بهذه الطرق من التلطف والتزلف ، وان لم يصدق ذلك من كل وجه على الرشيد والمأمون . ومما هما في العقل والعلم والعدل . وأخرى وهو ان سهلاً بكلامه هذا ، ضرب الحاضرين في مجلس المأمون في الصميم وأنزل من مراتبهم ليستأثر وحده بتلك الرتبة السنية ، فنسبهم الى السكوت في مواطن القول والى القصور في ميدان الاستحسان والاستهجان ، ومن قعدت به القريحة عن الانبعاث حين الحاجة كان حرياً ان لا يعاشر تلك الطبقة من الخلفاء وهذا من دهائه الكسروي .

رجع المأمون عن رأيه في سهل ، وعرف انه الرجل كل الرجل في صورته وعقله ومفاكهته وغنائه وأدبه ، فقربه وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده وكان سهل قد أسن بالطبع ، ويعرف المأمون مذ كان طفلاً عند الخليفة والده . ولكن المأمون يحترم الكبير وهو جد في جماع اموره . بيد انه لم يقبل باصطفائه الا بعد

اختباره · وعندما وقع عنده على امور تفرد بها وقد لا يجدها فيمن كان اختارهم لعشرته من العلماء وهم عشرة اختيروا له من مئة ·

« حياته العلمية » : — كان المأمون مولعاً بكتب القدماء والفلاسفة وعُدَّ ذلك من آكد أعماله في إنهاض مستوى العقل العربي فأنشأ داراً جمع فيها كل ما طالت يده اليه من كتب العلم باللغات المختلفة ·

وكانت جزيرة قبرس في ذاك العهد تشغب كثيراً على الخلافة وقد سبى عمال الرشيد اهلها مرة حتى اذا أفضت الخلافة الى المأمون هادن صاحب قبرس وارسل اليه بطلب خزائن كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه احد ابداً فيما قيل ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوي الرأي في بلده واستشارهم في حمل الخزانة الى المأمون فكلهم أشاروا بعدم الموافقة الا مطراناً واحداً فانه قال : الرأي ان تعجل بانفاذها اليه فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية الا افسدتها وأوقعت بين علمائها · فأرسلها اليه واغتبط بها المأمون · ثم صالح هذا الخليفة العالم صاحب الروم ميخائيل الثالث على ان يدفع اليه ما عنده من كتب القدماء وأرسل بعوثاً من ثقاته من المسلمين والنصارى لنسخ ما لا يتأتى لملك الروم إخراجه من الكتب فاجتمع للمأمون بذلك خزانة عظيمة فوق ما حمل اليه من الشرق والغرب وجعل سهل بن هرون خازناً لها وسماها بيت الحكمة فاشتغل بها سهل وكثرت مادته من العلم وجعل معه عالماً اسمه سلم كما جعل شريكاً له سعيد بن هارون ولعله اخوه او ابن عمه ·

ولا شك ان سهلاً تهيأت له أسباب البحث والنظر في بيت الحكمة التي أصبح ناظرها بما لم يتهيأ لغيره الوصول اليه · خصوصاً وهمة الخليفة منصرفة اي انصراف الى ترجمة كتب الفلسفة والعلوم والصناعات من اللغات الرومية والسريانية والفارسية والهندية · لا يهنأ له بال حتى تمسي المكتبة العربية تامة من كل وجه في علوم الدنيا على ما هي تامة في علوم الدين ، وقد كان شرع بالنقل عن اللغات الاخرى الأمويان العظيمان خالد بن يزيد وعمر بن عبدالعزيز في دمشق خلال القرن الاول وثنى بذلك في بغداد الخليفتان العباسيان المنصور والمأمون في القرن الثاني ·

اتسع الأفق أمام عقل سهل واستكملت أمامه عامة أدوات النبوغ ولم تقف

به الهمة عند الاخذ من كتب الفرس والفارسية لغته الاصلية بل تعدتها الى الاخذ من كل ما طاب له من ضروب المعارف البشرية خصوصاً وانتقاله الى بغداد بعد البصرة جاء متمماً له بغيته وكان اختلاطه برجال الخلافة وكانوا من كل صنف ونحلة وجنس معواناً له على الكمال وظهور جوهر نفسه . وقد يستفيد المرء بالعشرة والتلقي ما يستفيد من النظر في الكتب وتصفح دواوين العلم ومصاحف الفضائل .

وذكر الصفدي ان سهل بن هرون تولى خزانة المأمون وتولي خزانة الحكمة له . اي انه كان له منصبان الاشراف على خزانة المأمون اي خزانة كتبه الخاصة والنظر على دار الكتب التي سميت دار الحكمة او بيت الحكمة . وكلا العملين عظيم في بابه ولكنهما من نمط واحد . وفي ذلك ما يشعر بأن المأمون لم يكن يصبر عليه في قصره ولا يشبعه منه انصرافه الى المصالح العامة فقط او انه لم يرَ الكفاءة المطلوبة في غيره ليتولى هذين العملين .

« نثره وشعره » : — ان النزر القليل الذي وصل الينا من كلام سهل بن هرون يهيّء لنا السبيل الى الحكم عليه في بلاغته ورجاحته وعلمه وكلام المرء عنوانه ومرآته به تعلم ميوله ومنازعه وتستخرج دفائن نفسه . ومن كلام له في كتابه ثعلة وعفرة : « اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً ، قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فان تقديم النافلة مع الابطاء في أداء الفريضة ، شاهد على وهن العقيدة ، وتقصير الروية ، ومضر بالتدبير ومخلّ بالاختيار ، وليس في نفع تحمد به عوضاً عن فساد المروءة ، ولزوم النقيصة . » وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :

عدو تلاد المال فيما ينوبه منوعٌ اذا ما منعه كان أحزما
مذلل نفس قد أبت غير ان ترى مكاره ما تأتي من العيش مغنما

وكتب الى صديق له أبلّ من ضعف : « بلغني خبر الفترة في إلمامها وانحسارها والشكاة في حلولها وارتحالها فكاد يشغل القلق باوله عن السكون لآخره وتذهل الحيرة في ابتدائه عن المسرة في انتهائه وكان تغيري في الحالين بقدرهما ارتياعاً للاولى وارتياحاً للأخرى » .

ومن كلامه يعزّي : التهنئة بآجل الثواب ، اولى من التعزية على عاجل المصيبة . وقال في المعنى : مصيبة في غيرك لك ثوابها ، خير من مصيبة فيك لغيرك ثوابها . وقال : حق كل ذي مقالة ان يبدأ بحمد الله قبل استفتاحها ، كما بدئ بالنعمة قبل استحقاقها . وقال : تعلموا العلم فلأن يُذَم الزمان لكم ، خير من ان يذم بكم . ومن كلامه : العفو الذي يقوم مقام العتق ماسلم من تعداد السقطات ، وخلص من تذكار الزلات . وكتب الى جعفر بن يحيى :

اذا ما اتى يوم يفرق بيننا   بموت فكن انت الذي يتأخر

وقال : الصديق لا يحاسب ، والعدو لا يحتسب له ، اي لا يعتدُّ به ، وقال : من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها ، ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها .

وقال محمد بن زياد الزيادي البصري : وَجَدت على سهل بن هرون في بعض الامر فهجوته فكتب اليَّ : « اما بعد فالسلام على عبدك ، وداعَ ذي ظن بك ، في غير مَقلية لك ، ولا سلوة عنك ، بل استسلام للبلوى في امرك ، واقرار بالعجزة عن استعطافك ، الى اوان بأتك ، او يجعل الله لنا دولة من رجعتك والسلام » .
وكتب في أسفل الكتاب :

ان كنت أخطأت او أسأت فني   عفوك مأوى للفضل والمنن
أتيت ما استحق من خطإٍ   فجد بما تستحق من حسن

وهذا من أعظم مكارم الأخلاق . يُهجى وهو يسترضي هاجيه .

ومن محاسن تعريضات سهل انه خاطب بعض الامراء فقال له : كذبت فقال : أيها الامير ان وجه الكذاب لا يقابلك يعني الامير بذلك لان وجه الانسان لا يقابله . ورويت هذه النكتة لغيره . وحكي الجاحظ ان ابا الهذيل العلاف المتكلم سأله رقعة يكتب بها الى الحسن بن سهل يستعينه على ضائقة لحقته فكتب رقعة وختمها ودفعها اليه فأوصلها الى الحسن فلما رآها ضحك وأوقف عليها ابا الهذيل واذا فيها مكتوب :

ان الضمير اذا سألتك حاجة   لابي الهذيل خلافُ ما أُبدي

فامنحه رَوْحَ اليأس ثم امدد له حبل الرجاء بمخلف الوعد
وألن له كنفاً ليحسن ظنه في غير منفعة ولا رفد
حتى اذا طالت شقاوة جده وعنائه فاجبهه بالرد
وان استطعت له المضرة فاجتهد فيما يضر بابلغ الجهد

ولما قرأ الحسن رقعته وقّع فيها: «هذه لك الويل صنفتك لا صنفتي» وامر لابي الهذيل بالف دينار فعاد اليه فعاتبه فقال سهل: ترى اين عزب عنك الفهم اما سمعت قولي ان الضمير خلاف ما أبدي فلو لم يكن ضميري الخير ما قلت هذا · قال الجاحظ: هذه من مغالطات سهل وبلاغته ·

وروى الثعالبي قال: «حاجة ابي الهذيل» يضرب مثلاً للحاجة يسألها الانسان لغيره ويضمر ضد ما يظهر ولا يحب قضاءها إما بخلاً بجاهه واما لحاجة أخرى في نفسه · قال وكان ابو الهذيل سار الى سهل بن هرون الكاتب وكان خاصاً بالحسن ابن سهل يسأله الكلام في امره ويستعينه على ضائقة دفع اليها فسار سهل الى الحسن فكلمه وقال له: قد عرفت أيها الامير حال ابي الهذيل ومحله وقدره في الاسلام وانه متكلم قومه والراد على أهل الإلحاد وقد فزع اليك لإضاقة هو فيها فوعده ان ينظر له ما يصلح حاله · وربما كانت أبيات سهل منبعثة من كونه لاحظ بعد ان كلم الحسن بن سهل بشأن ابي الهذيل شيئاً من الفتور فلما أربد على الشفاعة بابي الهذيل مرة ثانية كتب تلك الابيات ومع هذا ما خلت من نكتة جميلة ·

وابو الهذيل هذا هو شيخ المأمون وكان يقول فيه «أطلّ ابو الهذيل على الكلام كاظلال الغمام على الانام» وكان يأخذ من السلطان في كل سنة ستين الف درهم ويفرقها على أصحابه ·

وأنشد الجاحظ لسهل يهجو رجلا:

من كان يعمر ما شادت أوائله فانت تهدم ما شادوا وما سمكوا
ما كان في الحق ان تأبى فعالهم وانت تحوي من الميراث ما تركوا

وأجمل بهذا الهجو الذي اقتصر فيه على الموعظة الحسنة وهو القائل:

اذا امرؤ ضاق عني لم يضق خلقي من ان يراني غنياً عنه باليأس

فلا يراني اذا لم يرع آصرتي مستمرٍ يا درراً منه بابساس
لا أطلب المال كي أغنى بفضلته ما كان مطلبه فقراً الى الناس

ومن شعره :

أعان طرفي على جسمي واعضائي بنظرة وقفت جسمي على دائي
وكنت غراً بما تجني عليّ يدي لا علم لي ان بعضي بعض اعدائي

هذا هو الشعر الذي يسميه الافرنج بالشعر الوجداني (Lyrique) واكثر شعر العرب منه وهو مرآة شعور صاحبه وما يمليه عليه قلبه ويزينه له طبعه ٠

ومن بدائع سهل : القلم لسان الضمير اذا رعف اغلق امراره وابان آثاره ٠

وكان يقول : اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد واعسر من ذلك ان تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم ٠

وقال : لا يُقدم على الخطبة الا اثنان فائق او مائق اما الفائق فثقته بنفسه تنفي عنه كل خاطر يورث التخجل والانقطاع واما المائق فانه لا يبالي اخطأ ام اصاب ٠

وقال : لو ان رجلين خطبا او تحدثا او احتجا او وصفا وكان احدهما جليلاً بهياً ولبيباً نبيلاً وذا حسب شريفاً وكان الآخر قليلاً قميئاً (صغيراً ذليلاً) و باذ الهيأة (رثها) دميماً وخامل الذكر مجهولاً ٠ ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة وفي وزن واحد من الصواب لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم وللباذ الهيئة على ذي الهيئة ولشغلهم التعجب منه على مساواة صاحبه له ولصار التعجب منه سبباً للعجب به ولكان الإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه لان النفوس كانت له احقر ومن بيانه ايأس ومن حده ابعد فاذا هجموا منه على مالم يكونوا يحتسبونه وظهر منه خلاف ماقدروه تضاعف حسن كلامه في صدورهم وكبر في عيونهم لان الشيء من غير معدنه اغرب وكلما كان اغرب كان ابعد في الوهم وكلما كان ابعد في الوهم كان اظرف وكلما كان اظرف كان اعجب وكلما كان اعجب كان ابدع وانما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين فان ضحك السامعين من ذلك اشد وتعجبهم منه اكثر ٠

والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد وليس لهم في الموجود الراهن

وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى بمثل الذي معهم في الغريب القليل وفي النادر الشاذ وكل ما كان في ملك غيرهم · وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم والاصحاب في الفائدة من صاحبهم وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم و يرحلون الى النازح عنهم ويتركون من هو أعظم نفعاً واكثر في وجوه العلم تصرفاً وأخف مؤنة واكثر فائدة ولذلك قدم بعض الناس الخارجي على العريق والطارف على التليد ·

الى ان قال : فاذا كان الحب يعمي عن المساوي فالبغض ايضاً يعمي عن المحاسن وليس يعرف حقائق مقادير المعاني ومحصول حدود لطائف الامور الا عالم حكيم ومعتدل الأخلاط عليم وإلا قوي المنة الوثيق العقدة والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الاكثر ·

وقال سهل يوماً وهو عند المأمون : من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين ان يرغبوا فيه وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال · قال المأمون : قد يسمي بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم فان كنت أردت هذا فوجهه الذي ذكرنا ولو قلت : ان العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره ولا تبلغ غايته ولا تستقصى أصنافه ولا يضبط آخره فالامر على ما قلت فاذا كان الامر كذلك فابدأوا بالاهم فالاهم وابدأوا بالفرض قبل النفل فاذا فعلتم ذلك كان عدلاً وقولاً صدقاً ·

و يقال على الجملة ان من الندرة ان يتم لانسان من المواهب والبيئة ما تم لسهل فهو من عنصر قوي ذي مدنية قديمة راسخة ثقفه المحيط العربي في ارقى بيئة عهدت في التاريخ الاسلامي وجاء في عصر زاهر بجملته وتفصيله ودخل في أمة قوية فتية فرفعه عقله وفضله الى اعلى مقسامات الفضل والنبل وهيئا له من أسباب النبوغ ما لم يكتب لغير بضعة من رجال الادب العربي وساعده على ذلك طول اجله · اذ لو فرضنا انه يوم دخل على الرشيد كان ابن ثلاثين وقد قبض سهل الى ربه في سنة اربع وثلاثين ومائتين · والرشيد تولى الخلافة سنة احدى وسبعين ومائة · واذا فرضنا انه اتصل بالرشيد في منتصف عهده فلا يكون سهل عُمّر أقل من تسعين سنة او ما يقرب من عمر صاحبه الجاحظ خمس وتسعون · ومن بورك له بايام حياته يجيء منه في العلم ما لم يجيء من المعتبط كهلاً او شاباً ·

« أثره الباقي » : — ومن امثل ما أُثر لسهل بن هرون من الكتب بل كتابه الوحيد الذي ما زال أهل الأدب يتناقلونه خلفاً عن سلف كتابه الى بني عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكتب قال في فاتحته يحاجهم : « بسم الله الرحمن الرحيم : أصلح الله أمركم وجمع شملكم وعلّمكم الخير وجعلكم من اهله . قال الاحنف بن قيس : يامعشر بني تميم لا تسرعوا الى الفتنة فان اسرع الناس الى القتال أقلهم حياء من الفرار وقد كانوا يقولون : اذا اردت ان ترى العيوب جمة فتأمل عيّاباً فانه انما يعيب بفضل مافيه من عيب . واول العيب ان تعيب ما ليس بعيب وقبيح ان تنهى مرشداً او تغري بمشفق .

وما اردنا بما قلنا الا هدايتكم وتقويمكم وصلاح فاسدكم وابقاء النعمة عليكم . ولئن اخطأنا سبيل ارشادكم فما اخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون انا ما اوصيناكم الا بما قد اخترناه لانفسنا قبلكم وشهرنا به في الآفاق دونكم . ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : (وما أريد ان أخالفكم الى ما انهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أُنيب) . فما كان احقكم في كريم حرمتنا بكم ان ترعوا حق قصدنا بذلك اليكم على ما رعيناه من واجب حقكم فلا العذرَ المبسوط بلغتم ولا بواجب الحرمة قمتم . ولو كان ذكر العيوب براً وفضلاً لرأينا في انفسنا عن ذلك شغلاً وان من اعظم الشقوة وابعد من السعادة الا يزال يتذكر زلل المعلمين ويتناسى سوء استماع المتعلمين ويستعظم غلط العاذلين ولا يحفل بتعمد المعذولين » .

فبدأ كما ترون في تقريع اهله او الناقمين والناقدين عليه منهم ومن غيرهم في ايثار كزازة اليدين على بسطها وانه اراد بارادتهم على الخير تعليمهم وحفظ فضل اموالهم وانهم اخطأوا في سوء فهم مراميه ولم يرعوا له حرمة ولا ذماماً . وذكرهم بحكمة جميلة وهو ان الناس يتذكرون خطيئات المعلمين ولا يذكرون جهل المتعلمين وعبر عنه بسوء الاستماع وهو من ارق التعابير . وذكرهم بالآية الكريمة التي جاءت في العبد الصالح . وبعد ان بلغ من قوله هذا الحد وبسط المسألة بينه وبين عاذليه على بخله ودعوة الناس الى طريقته وابان انه اشتهر بها في العالم وانها مما لا يعده

لة في الشرف بل فضيلة من فضائل النفس · بعد هذا اخذ يخاطبهم و يورد لهم الامثال التي وقعت له في هذا الشأن والتي وقعت لغيره فعدها عبرة فقال :

« عبتموني بقولي لخادمي : اجيدي عجنه خميراً كما اجدته فطيراً ليكون اطيب لطعمه واز يد في ريعه وقدقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورحمه لاهله : أملكوا العجين (شدوا عجنه) فانه احد الر يعين · وعبتم عليَّ قولي من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي · فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية وأشف من الكفاية فلما صرت الى تفريق اجزائه على الأعضاء والى التوفير عليها من وظيفة الماء وجدت في الاعضاء فضلاً على الماء فعلمت أن لو كنت مكنت الاقتصاد في اوائله ورغبت عن التهاون به في ابتدائه لخرج اوله على كفاية آخره ولكان نصيب العضو الاول كنصيب الآخر · فعبتموني بذلك وشنعتموه بجهدكم وقبحتموه وقد قال الحسن : وذكر السرف : انه ليكون في الماعونين الماء والكلاء فلم يرض بذلك الماء حتى اردفه بالكلاء » ·

و بذلك رأينا انه بسط قاعدته في البخل بسطاً بديعاً وبدأها بما وقع له في الماء ثم ثنى في الجملة التالية بما فيه من الاحتياط في حفظ الفاكهة والمأكولات محاولاً إقناع مخاطبيه بان الناس طبقات وليس من الانصاف ان يأكل السيد كالمولى فان إطعام الموالي والعبيد اطعمة اوثماراً لذيذة قد يمكنهم الاستغناء عنها ولكن ساداتهم لا يصبرون عليها اذا انقطعت عنهم بسبب إسرافهم واشار الى نهم الاولاد وسوء ادارة النساء الى ان قال :

« وعبتموني حين ختمت على سل عظيم وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ومن رطبة غريبة على عبد نهم وصبي جشم وأمة لكعاء وزوجة خرقاء وليس من اصل الادب ولا في ترتيب الحكم ولا في عادات القادة ولا في تدبير السادة — ان يستوي في نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللباب من كل شكل — التابع والمتبوع والسيد والمسود كما لا تستوي مواضعهم في المجلس ومواقع اسمائهم في العنوانات وما يستقبلون به من التحيات · وكيف وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقده القادر ولا يكترثون له اكتراث العارف ومن شاء اطعم كلبه الدجاج السمين وعلف حماره السمسم المقشر · فعبتموني بالختم وقدختم بعض الائمة على مزود

سويق وختم على كيس فارغ . وقال : طينة خير من ظِنة فأمسكتم عمن ختم على لا شيء وعبتم من ختم على شيء » .

ثم تحول في كلامه الى ذكر امور جوهرية في الحياة ، ذات شأن خطير في تدبير المنزل ، كالطعام واللباس مستشهداً على صحة قضيته بهدي الرسول ، وايراد أمثلة ممن يقتدي بهم في هذا الباب من الناس . فقال :

« وعبتموني حين قلت للغلام ، اذا زدت في المرق فزد في الانضاج ، لتجمع بين التأدم باللحم والمرق ، ولتجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (اذا طبختم لحماً فزيدوا في الماء ، فان لم يصب احدكم لحماً اصاب مرقاً) .

وعبتموني بخصف النعل (خرزها) ، وبتصدير القميص ، وحين زعمت ان المخصوفة ابقى واوطأ واوقى وانفى للكبر واشبه بالنسك وان الترقيع من الحزم والتفريق من التضييع والاجتماع مع الحفظ . وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يخصف نعله ويرقع ثوبه ويلطع اصبعه ويقول : لو دُعيت الى كراع لأجبت ولو أُهدي اليَّ كراع او ذراع لقبلت . ولقد لفقت سعدى بنت عوف إزار طلحة وهو جواد قريش وهو طلحة الفياض . وكان في ثوب عمر رقاع أدم . وقال : من لم يستح من الخلال خفت مؤنته وقل كبره . وقالوا : لا جديد لمن لا يلبس الخلق .

« وبعث زياد رجلاً يرتاد له محدثاً واشترط على الرائد ان يكون عاقلاً مسدداً . فأتاه به موافقاً فقال : أكنت ذا معرفة به قال : لا ولا رأيته قبل ساعته . قال : افناقلته الكلام وفاتحته الامور قبل ان توصله اليَّ قال : لا قال : فلم اخترته على جميع من رأيته قال : يومنا يوم قائظ ولم ازل اتعرف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم ورأيت ثياب الناس جُدُداً وثيابه أُبُساً فظننت به الحزم . وقد علمنا ان الجدد في موضعه دون الخَلق . وقد جعل الله عز وجل لكل شيء قدرا وبوأ له موضعا كما جعل لكل دهر رجالا ولكل مقام مقالا وقد احيي بالسم وامات بالغذاء واغص بالماء وقتل بالدواء . فترقيع الثوب يجمع مع الاصلاح التواضع وخلاف ذلك يجمع مع الاسراف التكبر . وقد زعموا ان الاصلاح احد الكسبين كما زعموا ان قلة العيال احد اليسارين . وقد جبر الأحنف يد عنز وامر

بذلك النعمان وقال عمر : من اكل بيضة فقد اكل دجاجة · وقال رجل لبعض السادة : أُهدي اليك دجاجة وقال : ان كان لابد فاجعلها بياضة · وعد ابوالدرداء العراق (بقايا الحمض) "جزَر البهيمة » ·

صفحة جميلة من تدبير المعاش والاقتصاد اراد بها تعليم المتنقصين له درساً نافعاً في الترتيب والنظام والقى عليهم مثلاً حسناً لا يسع حتى المسرف ان ينقضه وقد شفع كلامه بامثلة ليس في مقدور احد انكارها ولا تبلغ به الحالــ مهما بلغ من السرف والترف ان يقول ان من ذكرهم ليسوا قدوة صالحة · وبعد ذلك التفت التفاتة أُخرى · وبين لخصومه فضيلة الامساك في المال والحرص عليه لمايجلب الاستهتار من العوز فقال :

« وعبتموني حين قلت : لا يغترن احد بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عظمه ووهن قوته ان يُري أُكرومته ولا يُحرجه ذلك الى اخراج ماله من يديه وتحويله الى ملك غيره والى تحكيم السرف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعله ان يكون معمّراً وهو لا يدري وممدوداً له في السن وهو لا يشعر ولعله ان يرزق الولد على اليأس ويحدث عليه بعض مخبآت الدهور مما لا يخطر على البال ولا تدركه العقول فيسترده ممن لا يرده ويظهر الشكوى الى من لا يرحمه اضعفَ ما كان من الطلب واقبحَ ما يكون به الكسب · فعبتموني بذلك وقد قال عمرو بن العاص : إعملْ لدنياك عمل من يعيش ابداً واعمل لآخرتك عملَ من يموت غداً ·

« وعبتموني حين زعمت ان التبذير الى مال القمار ومال الميراث والى مال الالتقاط وحباء الملوك اسرع وان الحفظ الى المال المكتسب والغني المجتلب والي مايُعرض فيه لذهاب الدين واهتضام العرض ونَصب البدن واهتمام القلب اسرع وان من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دَخله ومن لم يحسب الدخل فقد اضاع الاصل وان من لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر وطاب نفساً بالذل · وعبتموني بان زعمت ان كسب الحلال مُضَمّن بالانفاق في الحلال وان الخبيث ينزع الى الخبيث وان الطيب يدعو الى الطيب وان الانفاق في الهوى حجاب دون الحقوق وان الانفاق في الحقوق حجاز دون الهوى فعبتم عليَّ هذا القول وقد قال معاوية : لم ارَ

تبذيراً قط الا والى جانبه حق مضيّع · وقد قال الحسن : اذا اردتم ان تعرفوا من اين اصاب الرجل ماله فانظروا في اي شيء ينفقه فان الخبيث انما ينفق في السرف ·

« وقلت لكم بالشفقة عليكم وبحسن النظر مني لكم وبحفظكم لآبائكم ولما يجب في جوار كم وفي ممالحتكم وملابستكم وانتم في دار الآفات والحوائج غير مأمونات ، فان احاطت بمال احدكم جائحة لم يرجع الى بقية فاحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة ، فان البلية لا تجري في الجميع الا مع موت الجميع · وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمة وفي ملك الشاة والبعير وفي الشيء الحقير اليسير : فرقوا بين المنايا · واجعلوا الرأس رأسين · وقال ابن سيرين لبعض البحريين : كيف تصنعون باموالكم قال : نفرقها في السفن فان عطب بعض سلم بعض ولولا ان السلامة اكثر لما حملنا اموالنا في البحر · قال ابن سيرين : تحسبها خرقاء وهي صَنَاع (حاذقة) · »

وبعد هذا الكلام الممتع مثّل سهل صورة جديدة في الاخلاق العارضة على من استغنى وحذر من الوقوع فيها لئلا تؤدي الى الفقر وهو ابشع ضروب المظاهر وبين العلة في قوله ان المال مقدم على العلم لان بالمال يكتسب العلم ويعرف قدر العلم فقال :

« وقلت لكم عند إشفاقي عليكم ان للغنى سكراً وان للمال لنزوة فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جَبَلة ليس احد أقصر عقلاً من غنيٍّ أَمِنَ الفقر وسكر الغنى أشد من سكر الخمر · وقلتم قد لزم الحث على الحقوق والتزهيد في الفضول حتى صار يستعمل ذلك في اشعاره بعد رسائله وفي خطبه بعد سائر كلامه فمن ذلك قوله في يحيى بن خالد :

عدو تلاد المال فيما ينوبه منوع اذا ما منعه كان احزما

ومن ذلك قوله في محمد بن زياد :

وخليقتان تقى وفضل تحرم وإهانة في حقه للمال

« وعبتموني حين زعمت اني أقدم المال على العلم لان المال به يغاث العالم وبه تقوم النفوس قبل ان تعرف فضيلة العلم وان الاصل أحق بالتفضيل من الفرع واني قلت وان كنا نستبين الامور بالنفوس فانا بالكفاية نستبين وبالخلة نعمي وقلتم كيف يقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدم الادباء العلماء أفضل ام الاغنياء ؟ قال بل

العلماء قيل فما بال العلماء يأتون ابواب الاغنياء اكثر مما يأتي الاغنياء ابواب العلماء قال لمعرفة العلماء بفضل الغنى والجهل الاغنياء بفضل العلم · فقلت حالها هي القاضية بينهما وكيف يستوي شيء ترى حاجة الجميع اليه وشيء يغني فيه بعضهم عن بعض ·

« وعبتموني حين قلت ان فضل الغنى على القوت انما هو كفضل الآلة تكون في الدار ان احتيج اليها استعملت وان استغني عنها كانت عدة · وقد قال الحصين بن المنذر وددت ان لي مثل أحد ذهباً لا انتفع منه بشيء قيل فما ينفعك من ذلك قال لكثرة من يخدمني عليه · وقال ايضاً عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه الا انه عز في قلبك وشيء في قلب غيرك لكان الحظ فيه جسيماً والنفع به عظيماً ·

وختم كتابه في انه لن يبدل من خلقه في الشح وفي الدعوة الى تزيينه للناس وأورد جملاً لجماعة من المشهورين بالعقل وذكر جماعته في ختام حديثه بما يجب عليهم قبل ان يذكروا ما لهم وذلك بقوله :

« ولسنا ندع سيرة الانبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لاصحاب الاهواء · كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الاغنياء باتخاذ الغنم والفقراء باتخاذ الدجاج · وقال درهمك لمعاشك ودينك لمعادك فقسموا الامور كلها على الدين والدنيا ثم اجملوا احد قسمي الجميع الدرهم · وقال ابو بكر الصديق رحمه الله اني لأبغض اهل البيت ينفقون رزق الايام في اليوم الواحد · وكانوا يبغضون اهل البيت اللحمين (Les carnivores) (الذين يكثرون اكل اللحم) · وكان هشام يقول ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً · ونهى ابو الاسود الدؤلي وكان حكيماً اديباً وداهياً اريباً عن جود كم هذا المولد وعن كرمكم هذا المستحدث فقال لابنه اذا بسط الله لك في الرزق فابسط واذا قبض فاقبض ولا تجاود الله فان الله أجود منك · وقال درهم من حل يخرج في حق خير من عشرة آلاف قبضاً · ونلقط عرزدا [1] من تريم فقال تضيعون مثل هذا وهو قوت امرىء مسلم

(١) لعل العبارة محرفة ولعلها « عرماً من ترتم » العرم بقية القدر والترتم كقنفذ ما فضل من الطعام والإدام في الاناء والقصعة او ما نسميه باللغة الشامية القحاطة ·

يوماً الى الليل . وتلقط ابوالدرداء حبات حنطة فنهاهبعض المسرفين فقال (إيه يا ابن العبسية ان مرفقة المرء رفقه في معيشته) .

فلستم عليّ تردون ولا رأيي تفندون. فقدموا النظر قبل العزم وتذكروا ماعليكم قبل ان تذكروا مالكم والسلام اه » .

« خاتمة » == وبعد فهذه صفات سهل بن هرون وهذا انشاؤه ونثره بل هذا فكره وعقله وما أوردنا الا مثالاً ضئيلاً مما كتب ووصل الينا وقدانى عليه بعداحد عشر قرناً فتعرفنا على الجملة طريقته وحقيقته وكان علينا ان ننسج على غراره في بيانه ونعلم كيف يبالغ في انتقاء ألفاظه حتى لا يتخير منها الوحشي النافر ولاالمكرر الساقط بتنوق كرائمها و يسلكها في سلكه و يرصعها في عقوده و يلبسها حلة من حلل قلبه فتجيء جزالة من دون تعمد وسلاسة من غير ما تبذل ونمطاً عالياً من السهل الممتنع بتدفق حكمة و يسيل بياناً تتناوله الأذهان وتتشربه الانفس عفواً صفواً فاذا أراد المقلد ان يحذو حذوه فهناك تفاضل العقول والقرائح . سهل بن هرون احد افراد قلائل زانوا بما صاغوا من الكلم الطيب تاريخ أدب العرب واختطوا لمن بعدهم خطط التفكير والتصوير على النمط الفارسي العربي وكلامه في بابه لباب البلاغة ومثال الفصاحة لاتبلى جدته على وجه الايام ولا يحتاج في الحكم عليه الى محكمة نقض وإبرام .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

طرابلس وآثارها[1]

طرابلس ولا ازيدكم علماً لفظة محرفة عن (Tripolis) اليونانية ومعناها المدن الثلاث . وقد أطلقها المكدونيون الذين قادهم الاسكندر الكبير الى سورية على بلدة مثلثة . فعرفت بها من يومئذ . اما اسمها الفينيقي الذي وسمت به قبل اليونان فمجهول . لان التاريخ لم يبح به . ولا غرو فان التاريخ عودنا الصمت في مواضع شتى فكاد الدهر يطمس على كثير من الحقائق لولا ان للآثار والرقم (Les Inscriptions) لساناً صيره العلم بليغاً . فهل يرجى للآثار السورية ان تُظهر لئلاء مكنوناتها كما أظهرت بلاد النهرين .

ومن الغني عن البيان ان آثار بين النهرين قد جلت شيئاً عن أحوال سورية في بعض ازمنتها . فان كان القدماء من سكان سورية على شيء من مماثلة الكلدان والاشوريين والبابليين وغيرهم من اهل بين النهرين او وادي النيل في عاداتهم اذن لاستبشرنا ان في طيات تربتنا الملأى بالخرائب والانقاض الشيء الكثير من تاريخ البلاد . على ان الفاتحين لم يقصدوا بكتاباتهم على الحجر او الآجر او الهياكل الا تخليد أعمالهم والمفاخرة ببطشهم فظهرت الرقم لعهدنا هذا مملوءة بالفوائد . ولذلك لسنا نعلق آمالاً كباراً على وجود رقم ذات شأن لانه لم يقم في سورية دولة غازية .

ومما يؤخذ من قول الفاتح الاشوري اسورناتسر بال في الفقرات ٨٤ و٨٥ و٨٦ ما نعربه : بومئذ احتللت منحدرات لبنان ونزلت الى بحر فينيقية الكبير وهنالك عند البحر علقت سلاحي وقدمت الذبائح للأرباب (واخذت) الجزية من ملوك ساحل البحر الصوريين والصيدونيين والجبليين والمخالياتيين والمايزيين والكايزيين الفينيقيين واهل ارواد الخ . ولتجدن مترجم هذا الرقيم العلامة سايس الانكليزي ينقل عن العلامة دالتزش الالماني انه يحسب المدن الثلاث مخالات ومايز وكايز هن التي تألفت من اجتماعهن مدينة طرابلس .

---

(١) مقالة للاستاذ المؤرخ السيد جرجي يني احد أعضاء المجمع تليت على أعضاء المجمع بدمشق بمناسبة قبوله عضواً فيه سنة ١٩٢٢ م

وكأني بدالتزش يحسب الفاتح قد اخترق لبنان عرضاً فنزل في موضع طرابلس او على مقربة منها ، وان فيها اقتبل وفود الفينيقيين الذين جاؤه لعرض الطاعة واذ ذكرهم ابتداء بسرد اسمائهم من الجنوب حتى انتهى الى الشمال · واذ ذكر المدن الثلاث بين جبيل وارواد خيل للعلامة انها طرابلس ·

ولكن هذه الرواية على علو سندها لا تدع الا الظن بان البقعة التي قامت فيها طرابلس لم تكن في الزمن الفينيقي بلقعاً بل مأهولة بفريق منهم · وهذا ما ذهب اليه العلامة رولنسون وهو الثقة الذي لا ينازع في التاريخ ·

والمعروف من صفات الفينيقيين واخلاقهم وعاداتهم انهم يسكنون المدن قرب البحر يحملنا على قبول رأي دالتزش بانهم سكنوا ثلاث مدن هي محالات ومايز وكايز ·

وان صح ذلك وجدنا سبيلاً لقبول رواية مؤرخي اليونان وفي صدرهم ديودورس ومؤدى الرواية ان الفينيقيين وان كانوا أمة واحدة فانهم لم يجتمعوا على ولاء دولة واحدة منهم · بل كانوا دولاً شتى تستقل كل منها في شؤونها الداخلية · واشهرهن صور وصيدا وأرواد · الا انهن كن يجتمعن في الازمات و يتألفن حلفاً لدفع الطوارئ · وان هذا أفضى بهن لعقد ديوان عام يتولى النظر والتدبير وانهن اخترن موقعاً متحايداً وان حب الاستقلال الداخلي دفع كلاً منهن الى الاحتفاظ بشأنها فبنى نواب كل من الدول الثلاث حياً مخصوصاً لسكناه يبعد عن مثيله نحو ستاديا وأقام المئة نائب عن كل من المدن الثلاث بنسائهم واولادهم وخدامهم في الحي المنسوب اليهم تسودهم شرائعهم وأحكامهم ·

ثم أدرانا ان كل فئة من اولئك النواب اختارت لسكناها حياً او بليدة من المدن التي ذكرها اسورناتسربال حتى اذا جاء اليونان رأوا المدينة مثلثة فسموها المدن الثلاث :

ثم كرت الايام وتوالت الحروب والزلازل فلم تبق للمدينة المثلثة من أثر · ولذلك اختلف الرواة في مواقعها فقالوا — وقد تابعتهم اونقلت عنهم ماقالوا في تاريخ سورية المطبوع — ان احد الاحياء كان في السرفتانية والثاني في موقع البلدة اوفي البحصاص والثالث في موضع الميناء · اما الآن فاني أنبذ القول بذلك لان البعد بين الاحياء هو

ستاديا واحدة كما قال سترابو والستاديا ٦٠٦ من الاقدام الانكليزية وبعض أجزاء القدم والحال ان المسافة بين المواقع المذكورة لاتنقص عن ميلين خطاً مستقيماً . وان موقع البلدة الحالي لم يكن عامراً قبل الزمن الصليبي . وان الفينيقيين كانوا بحارة وتجاراً فلا يرتاحون للسكنى بعيداً عن البحر . ولهذا كله ارجح الظن بان الاحياء الثلاثة كانت على سيف البحر ممتدة من موقع الميناء الحالي حتى البحصاص او ما يدنو منه .

مضى ذلك الزمن الفينيقي ولم يخلف لنا اثراً . وأعقبه الزمن السلوقي ولم تذكر فيه طرابلس الا قليلاً . على ان علم السكة المضروبة (Numismatique) يدل على ان في أخريات ذلك العهد تراخت قبضة السلوقيين فكان في طرابلس طاغيتها المستبد .

وكان بنو قيطور من بني اسماعيل قد دخلوا سورية وألفوا دولة عربية في جهات الجيدور وحوران ورسخت أقدام اصحابها ولكنهم مع عروبتهم اكتسبوا من مجاوريهم في سورية وفلسطين ظواهر الحضارة اليونانيـة وانتحلوا الاسماء اليونانيـة حتى اوشك الانتحال ان يطمس على أصلهم .

فهذه الدولة المعروفة بالايطورية تقدمت الى البقاع فامتلكت شالسيس (عين جر) واتخذتها عاصمة ثم علت قنن لبنان وانحدرت منها الى ساحل البحر فامتلكت طرابلس وجعلتها عاصمتها الثانية .

ومع اننا لا نجد لتلك الايام أثراً فان في جوارنا من أعالي لبنان قرية يقال لها ايطو تقع على طريق الانحدار من الجبل الى السهل فلعلها تخلد باسمها ذلك العهد .

وعندما فتح الرومانيون سورية وجدوا الطاغية الأخير من الايطوريين في طرابلس وله في جوارها حتى البترون معاقل وحصون فغلبوه عليها ودكوها .

وجاء بعد ذلك الزمنان الروماني والبزنطي وليس لطرابلس فيهما ما يذكر ومثلهما كان العهد الاسلامي الاول . ولم تخلف تلك الايام لنا أثراً لانها طمست على الماضي ولم تبق لنا من المدن الثلاث الا بلدة واحدة هي القائمة في موقع الميناء .

ومما يروى ان طرابلس أدركت في القرن الحادي عشر مقاماً مذكوراً . وذلك انها تقدمت في تجارتها وصناعتها وعلومها وآدابها . حتى وجد الصليبيون فيهـا اربعة

آلاف نول ودار علم نخمة ومكتبة عامرة بالوف الكتب التي كان قد جمعها صاحبها القاضي ابو الحسن بن عمار ·

فلما جاء الصليبيون ونزلوا على عرقا وهي لصاحب طرابلس فخر الملك محمد بن عمار بعث هذا فاسترضى الغزاة .وفسح لهم ان يتجاوزوا الموضعين من غير ان يمسوهما بضر ·

ولكن ماعتم ان ظفر الصليبيون بفتح القدس وهي ضالتهم المنشودة فرجع منهم فريق بزعامة ريمون ده سان جيل كونت ده طولوز المعروف في تواريخ العرب باسم صنجيل · فنزل على ما يظهر حوالى موقع القلعة بدليل ان الافرنج أطلقوا على الهضبة اسم تل الغرباء اوالحجاج (Des pélerins) كما كانوا يسمون انفسهم · واظنهم اختاروا هذا المنزل لبعده عن البلدة نحو ميلين ولقربه من نهر ابي علي (قاديشا) ولاشرافه على السهل الموصل الى المدينة · اما السهل فكان يزرع و يدُرّ على اصحابه ريعاً وافراً ·

وقد أثر البحاثة الالماني روهرخت عن الراهب اكاهارد قوله ان ريمون هاجم البلدة سنة ٤٩٣ هـ فلم ينل منها أرباً غير ان المؤرخين لم يذكروا تلك الهجمة بل ذكروا انه لما ظفر ريمون بجناح الدولة صاحب حمص سنة ٤٩٥ خطر على باله ان يحصر طرابلس ثم اكتفى باخذ الجزية ·

فريمون لم ينزل جوار طرابلس و يقضي السنين الطوال وهو يأوي مع رجاله الى الخيام بل في اثناء الفترة بنى له حصناً يسمى حصن صنجيل وشاد من حول الحصن على منحدر الهضبة بيوتاً لأصحابه ·

وفي تلك السنة أنجدت دمشق طرابلس فتشدد ابن عمار ورد عنه هجوم ريمون · فسكن هذا عنا الهجوم ولكنه أفرط في اعنات البلد ثم استعان بسفائن جنوة وحصرها براً و بحراً من غير ان ينال أرباً لان الامراء الوطنيين كانوا يرسلون النجدات للبلد · واولئك ينضمون الى الحماة و يدافعون عن طرابلس تمام الحمية ·

وفي ذات مرة خرج ابن عمار برجاله وبيّت الافرنج في منازلهم وأضرم النار في الحصن . فأحرقه غير ان الفرنج هبوا للدفاع فاسترجعوا مواقفهم وردوا الطرابلسيين على أعقابهم · وكان ريمون قد صعد الى سطح حصنه ليشرف على القتال غير مبالٍ بالنار

المستعمرة فسقط السقف ووقع الامير ثم مات متأثراً . وكان ابنه غائباً في فرنسا فتولى ابن اخيه الإمرة .

اما الحصن المحروق فقد زعم بعض الآثاريين انه ذهب في الغابرين كما ذهب بانيه . ولكن الحقيقة التي تدل عليها التواريخ وتؤيدها المشاهدة ان الافرنج بنوا القلعة على أطلال الحصن المحروق . وان الجدران التي تنم عن غير البناء الصلبي انما شيدت ترميماً لما تداعى من الاصل . كما يتضح ذلك لمن يرى اركان البناء الداخلي ولمن ينظر الى السكة الطرابلسية وقد رسمت عليها القلعة بتمامها . وعندي منها قطعة مضروبة على عهد الأمير بونط .

فالقلعة بناء صلبي الاصل ولكنها ترممت مراراً جمة بعد خروج الصليبيين وظل حماتها يصلحون فاسدها حتى زماننا فلا غرو ان يطمس الترميم على الاصل حتى كاد يغلب عليه . بل أفضى الى قول بعض الناظرين اليها نظراً سطحياً انها من بناء غير الصليبيين . ولتجدن البيوت التي بناها الفرنج تحت كنف القلعة ما زالت ماثلة ولئن طرأ على بعضها الترميم والتبديل . ولهذا نحسب المباني القديمة اذا عرضت لفحص الآثار بين تظهر شأنها . ولا يمكن للدور المشيدة على منحدر الهضبة وفي السويقة وسوق حراج وأمثالها الا ان تظهر للباحث تاريخها القديم . لا سيا تلك التي رسمت على أبوابها بعض شعائر المسيحية وما برحت آثارها بادية .

ومما روى علماء الآثار أخذاً عن مؤرخي العهد الصلبي ان طرابلس كانت تحوي كثيراً من الكنائس والاديار والملاجئ والمستشفيات . وقد حاول بعضهم تحقيق مواقعها ولكني لا احسب ذلك مستطاعاً لخلو الوطاب من سند صحيح وانه ليظل مجهولاً حتى تقوم على كشفه بعثة علمية صالحة للعمل .

اما جسر السويقة فوق نهر ابي علي فالظاهر انه من بناء الصليبيين ايضاً . غير اني لا اعني ان الجسر الحجري القائم اليوم هو هو المبني منذ ثمانمائة سنة بل انه شيد هنالك جسر ورد اسمه جسر الحجاج نسبة للهضبة التي شيدت القلعة عليها .

اما الماء الجاري الى طرابلس فله تاريخه الخاص . اذ لا يعقل ان المدن الثلاث تبنى بعيدة عن الماء المشروب . فالنهر بعيد عن مواقع المدن وجدول البحصاص

لا يجري الا زمن الشتاء . فالضرورة تقضي بجر الماء في القني . وآثار تلك القني وجدت منذ عشرات السنين قرب الميناء فحسبها الناس كانت لجر ماء النهر . ثم ظهرت في أخرى عند قرية مجدليا فدلت على ان طرابلس القديمة كانت تستقي ماءها من الضنية .

وربما اعتاض الاهلون ولاسيما في الميناء بحفر الآبار والصهاريج اما في البلدة التي عمرها الصليبيون فان في جوار النهر لهم غنى . وكأني بهم شعروا بعد حين بالحاجة الى ماء أصح من ماء النهر وانقى . فجروه من نبع رشعين (رأس العين) وانا ولئن عرفنا ان جر الماء عمل صليبي فالحديث المنقول بالتسلسل لا يكفي . انما يدلنا على صدقه ان القناة تمر على قناطر شيدت فوق نهر ابي علي اسمها قناطر البرنس . والبرنس كلمة افرنجية ومع ذلك ما برحت على ألسنة الناس .

لكن من هو البرنس ? نجيب ان الامراء الذين سادوا في طرابلس وما اليها (من حد بلاد المرقب حتى المعاملتين قرب جونيه) كان واحدهم يلقب كونت وتسمى امارتهم كونتيه . فحدث ان اولئك الكونتات أصهروا الى امراء انطاكية الذين يلقبون بالبرنس .

وفي سنة ١١٨٩ توفي كونت طرابلس فاستولى برنس انطاكية صبره على بلاده وجعل ابنه كونتاً عليها . فظل يحكمها الى سنة ١٢٠١ حين توفي ابوه البرنس وانتهت إمارة انطاكية للابن الكونت فصار برنساً وهو بيوموند الرابع صاحب طرابلس . الذي جمع بين الإمارتين وآثر لقب برنس فيهما جميعاً . وظل على إمارته حتى مات سنة ١٢٤٣ فخلفه ابنه ثم أحفاده ولكن آجال إماراتهم كانت قصيرة وايامهم لم يغلب فيها الصفو والهناء . ولذلك نرجح ان بيوموند الرابع هو الشارع في جر الماء وبناء القناطر . الا ان الماء المذكور على ما قال النويري توزع في أرجاء طرابلس ودخل بيوتها على عهد سيف الدين بلبان الطباخي نائب الفتوحات اي بعد ان استرجع المسلمون البلد .

واني لأخشى ان يكون المؤرخ من الناسجين على منوال سائر مؤرخي تلك العصور في إلقائه الكلام من غير تثبت وتحقيق وانما ابتغاء اظهار فضل قومه . ولا أقول هذا الا لاني قرأت له رواية تخالف شهادة الآثار البادية للعيان فقد قال عن الميناء بعد فتحها وهدمت المدينة ... ثم عمر المسلمون مدينة مجاورة للنهر واختلفوا فيها (اليها)

وعمروا فيها حمامات وقياسر ومساجد ومدارس للعلم الخ ٠ وكلامه هذا يدل على ان المدينة الحاضرة كلها من بناء المسلمين مع ان آثار الهندسة الفرنجية ظاهرة في كثير من مبانيها ٠ فتجد البحاثة سو برنهايم يؤثر عن برشم قوله ان طرابلس ما برحت محافظة على شكل مدينة من مدن العهد الصليبي لما فيها من الأقواس (القناطر) التي تجعل الأزقة كالأقبية ٠ وثمة ثلاثة قناطر غطيطية (gothique) ربما كان شكلها مأخوذاً عن المباني المسيحية القديمة ٠ فاحداها قنطرة الباب في حمام عز الدين الذي بناه عز الدين ايبك والثانية على باب الجامع الكبير وهي ممتازة بكمالها في شكلها والثالثة على باب البلدية ٠ وهنالك ايضاً قنطرة على الطرز البزنطي قائمة فوق مدخل من أبواب الجامع الكبير الخ ٠

اما الميناء فان الدهر قد طمس على آثار الصليبيين فيها لان الفاتحين دكوها الى الارض لكن بقي عند طرفها الجنوبي على طريق فوق الريح قطعة من السور العتيق تنم عن الحد الذي بلغته البلدة يومئذ ٠ اما الابراج القائمة على سيف البحر فقد كانت عدتها سبعاً بدليل قول الشاعر : (وابراجها عد الكواكب سبعة) الخ ٠

وان البرج الواقع قرب مصب النهر يسميه العامة برج السبع وليس برج السباع كما ترجمه بعض الفرنج الى لغاتهم ٠

ويغلب على الظن ان هذه الابراج لم تكن من بناء الفرنج بل من بناء المسلمين بعد الصليبيين ٠ لان شكل البناء ليس بافرنجي ٠ ولان طرابلس في الزمن الصليبي لم تكن تخشى غزاة البحر وانما صارت تحاذرهم لما استفحل امر القرصان ولاسيما من اهل قبرس وفيها مقر الملوك من آل لوزنيان الذين كانت لهم مملكة القدس بالاسم ٠

والنهر الجاري في طرابلس يعرف عند منبعه حتى اليوم بنهرقاديشا اي المقدسين ويجري فتنضاف اليه بعض الجداول وقد ذكره الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الطرابلسية باسم الغضوب او الغضبان اشارة الى شدة حمولته ويعرف الآن باسم نهر ابي علي ٠ ولا ندري كيف اطلق عليه هذا الاسم ولكن قد يمكن ان يكون وضع له اشارة الى الغلظة والشدة لان في الاحاديث الموضعية حكاية يتوارثها الابناء عن الآباء انه كان في البيمارستان القائم قرب جسر السويقة عريف شديد الغلظة اسمه

ابو علي . وقد درج على ألسنة الناس قولان كادا يذهبان مثلين احدهما اذا عُيّر انسان بالغلظة يكنى بابي علي فيحسبها انكنى سبة ، وثانيهما قولهم ابو علي ثقل حديده كناية عن استفحال جنون المحكى عنه . ولعل تسمية النهر مستفادة من ذلك .

وللاسماء شأن خطير في الدلالة على الاصل . فالهضبة التي بنيت القلعة عليها لم تبق موسومة بهضبة الغرباء اوالحجاج كما سماها الصليبيون انما تعرف البقعة الواقعة في قنتها بمار يوحنا والارجح انها اكتسبت هذا الاسم من مستشفى القديس يوحنا الذي كان على الهضبة على ما يؤخذ من كلام العلامة راي .

وفي جوار طرابلس عند طرف البحصاص الجنوبي موضع يقال له ابوحلقة وهذا الاسم كان حيرة بعض المؤرخين من قومنا وانما حاروا لانهم لم يفهموا المعنى فكأن قوم يقولون الحلقة الطرابلسية بالفاء او بالقاف ناقلين ماقيل عن حوادثها في بعض التواريخ القديمة من غير تحقيق عن اصلها .

انما الحلقة عند سلاطين مصر من المماليك عبارة عن الجند المرابط . ومتى عرف هذا الاسم اتضحت روايات غم فهمها .

والمكان الذي قرب طرابلس واقع على سيف البحر وفيه الطريق اليها فليس بعيداً ان يكون ولاة الامر في ذلك الحين قد جعلوا على الطريق العام مخفراً او مقراً لرجال من الحلقة الطرابلسية وكرت الايام فسماه الناس ابا حلقة .

فياسادتي الاعلام : حسبي الآن ماذكرت . لاني أخشى ان ازيدكم تطو بلاً فأفضي بكم الى السآمة وانضجر على ان في طرابلس آثاراً أخرى مابرحت ماثلة وقد سبق لي فأتيت على ذكر بعضها في مقالة عنوانها (آثار الاسلام في طرابلس الشام) نشرتها مجلة المباحث قبل الحرب فاذا لم تجدوا في تكرار التحدث عنها بأساً أعدت الكرة على كتابتها .

والله المسؤول ان يأخذ بايديكم وان يزيدكم نشاطاً لاتمام عملكم المبرور و يثيبكم خيراً جز بلاً بمنه و كرمه .

قانون البلاغة

« رسالة مخطوطة »

كنا ظفرنا بين الرسائل المخطوطة في دار الكتب بدمشق برسالة في فن البيان (عدد ٢٣ من قسم المعاني والبيان) وقد كتب على ظهر الرسالة ان مؤلفها هو (فخر الدين ابو طاهر محمد بن حيدر البغدادي) ولم نظفر باسم المؤلف في كتب التراجم لنعلم في اي عصر كان . ولما تصفحنا الرسالة وجدناها ذات قيمة أدبية من حيث أسلوبها وبلاغة عبارتها . نعم ان المباحث التي كتب فيها المؤلف هي في البيان والبديع وأنواعه ولم يجودها المؤلف كما جودها من اتى بعده من المؤلفين ولاسيما تجويد ابي هلال العسكري في كتابه الصناعتين — لكن اطلاع علماء الأدب على هذا الكتاب يهيء لهم مادة في موضوع الفن وتاريخه وتطوراته منذ اول عهده . ولذلك حرصنا على تصحيح نسختنا فوفقنا الى تصحيح كثير من أغلاطها . وقد أعيانا امر التصحيح في مواطن كثيرة . ثم أعلنا المرة بعد المرة : نسأل رجال الأدب والفضل عن هذه الرسالة ومؤلفها ، ان كان لديهم خبرعنها فلم يلب احد طلبنا ولم يرشدنا الى مؤلف الرسالة في اي عصر كان ، وراجعنا ايضاً فهارس المكتب الكبرى في الشرق والغرب فلم نقع على ذكر هذه الرسالة . وفي آخر الامر رأينا عجباً : رأينا العلامة شمس الدين سامي يذكر مؤلف الكتاب في كتابه التركي المسمى (قاموس الأعلام) وقد قال عن المؤلف ما ترجمته : « ابو طاهر محمد ابن حيدر كان من الشعراء وتوفي في سنة ٥١٧ هـ ومن جملة أشعاره هذه القطعة في وصف الخمرة .

(مرحباً بالتي بها قُتل الهـ ـمّ وماتت مكارم الاخلاق)

(وهي في رقة الصبابة والشو ق وفي قسوة الجفا والفراق)

(لست أدري أمن خدود الغواني عصروها ام من دم العشاق) »

هذا كل ماذكره شمس الدين سامي عنه ، ولم يتعرض لذكر مصنفاته ولا للفن الذي تخصص فيه ، ويظهر من شعره هذا انه متمكن من فنون الأدب العربي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وذو سليقة شعرية صحيحة . وقد عزمنا الآن على نشر الرسالة في مجلة المجمع مع العود الى العناية بتصحيح عبارتها والتعليق عليها ، ولا غرو اذا بقي فيها بعض الاغلاط فنحيل امر تصحيحها الى قراء مجلتنا الفضلاء فاذا اهتدى احدهم الى شيء من ذلك فليكتب الينا لنعلن تصحيحه بعد تمام طبع الرسالة وكذلك اذا اهتدى احد القراء الى شيء من خبر المؤلف او عرف هذه الرسالة نسخة او نسخاً فليهدنا اليها لنقابل نسختنا عليها .

المجمع العلمي

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

« رب انعمت فزد »

سألت أطال الله مدتك ، وأدام نعمتك ، وحرس دولتك ، عن البلاغة . والبلاغة ليست ألفاظاً فقط ، ولا معاني فحسب ، بل هي ألفاظ يعبر بها عن معانٍ ، ولكن ليس كما اتفق ، ولا كيفما وقع ، لأن ذلك لو جرى هذا المجرى ، لكان اكثر الناس بليغاً ، اذ كان اكثرهم يؤدي عن المعاني التي يوردها بألفاظ تدل عليها ، لكنهم يخرجون عن طريق البلاغة ، ومنهاج الكتابة من وجهين ، احدهما ان تكون الألفاظ مستكرهة مستوخمة ، غير مرصوفة ولا منتظمة . والثاني ان تكون كثيرة يغني عنها بعضها ، ويمكن ان يعبر عن المعنى الدال عليها بأقل منها .

على انه ذهب قوم الى ان لتكثير الألفاظ الموصوفة في بعض المواضع دخلاً في البلاغة ، وذلك اذا كان موضع يُحتاج فيه الى الخطابة في العامة ، ومن لا يسبق خاطره الى تصور المعنى في اول وهلة ، اما لبعده عن الذكاء والفطنة ، او لأن الموقف كذلك ، يكثر فيه اللغط والضجة ، فيحتاج الى إشباع المعنى وتوكيده وتكريره ، لمن لم يمكنه السبق الى تحصيله ، لا بالألفاظ المترادفة . وهي التي يدل الكثير منها على معنى واحد بعينه ، مثل ان يقال في وصف السيف : الحسام الباتر ، الجراز القاطع . وفي وصف شجاع : البطل الفاتك ، النجد الباسل . وفي وصف

الجواد : الخِرْق(١) الباذل ، الجمّ النائل ، الكثير الفواضل ، الغزير النوافل ، وفي سائر الأوصاف على ذلك ٠

وهذا يقع في باب المكاتبات بالفتوح والعهود ، والصكوك والعقود ، وما جرى هذا المجرى ٠ ولهذا السبب قال بعضهم في وصف كاتب بليغ : ان اخذ شبراً كفاه ، وان تناول طوماراً(٢) أملاه ٠ يذهب بهذا القول الى ان البليغ يحتاج في موضع الى الإطالة والإسهاب ، كما يحتاج في آخر الى الاختصار والايجاز ، الا ان أكثر ما عليه الناس في البلاغة انها الاختصار ، وتقريب المعنى بالألفاظ القصار ٠ حتى انه سُئل بعض الناس عن البلاغة فقال : هي لمحة دالة ٠ وهذا مذهب العرب وعادتهم في العبارة ، فانهم يشيرون الى المعاني بأوحى(٣) إشارة ، ويستحبون ان تكون الألفاظ أقل من المعاني في المقدار والكثرة ٠

فأما ما يصلح للكتاب ، ويليق بذوي الالباب ، ان تكون ألفاظهم غير ناقصة عن المعاني ، ولا زائدة عليها ، كما وصف بعض الكتاب واصف فقال : كأن ألفاظه قوالب لمعانيه ٠ يريد انها مطابقة لها ، غير زائدة عليها ، ولا ناقصة عنها ٠ وهذا المذهب هو الذي يجب ان يستعمله الكتاب ، اذا لم يكن موضع يحتاج فيه الى الاسهاب ٠

فانه يحكى عن جعفر بن يحيى البرمكي وكان قريع دهره ، ووحيد عصره بلاغة في المكاتبة ، وجودة لسان في المخاطبة ، انه قال : اذا كان الايجاز كافياً ، كان التطويل عيّاً ، واذا كان التطويل واجباً ، كان التقصير عجزاً ٠ وقال ابن الاعرابي : قال لي المفضل : قلت لاعرابي ما البلاغة فقال : الإيجاز من غير عجز ، والإطناب من غير خطل ٠

وينبغي ان تعلم ان البلاغة لما كانت احدى الصناعات ، كان لها ، ككل صناعة من المبادئ والموضوعات والأدوات ، وانه ليس واجباً على كل متعلم لصناعة ان ينظر في مبادئها وموضوعاتها ، ولا ان يعلم أدواتها ، وهذا عام لجميع الصناعات المهنية التي يباشرها

ARCHIVE
http://archive.sakhrit.com

---

(١) الخرق (بكسر الخاء) كالخريق بمعنى السخي او الفتى الحسن الكريم الخليقة ٠ (٢) الطومار الصحيفة المستطيلة تكتب وتطوى طيّاً اسطوانياً ٠ (٣) أعجل وأسرع ٠

الصانع باعضائه العقلية التي يستعمل فيها فكره ، فان في الصناعات المهنة الصياغة ، وموضوعها الذهب والفضة . وليس يجب ان يعلم مع تعلمها ، كيف يستخرج هذان الجوهران من معدنهما ، ولا ان ينظر في شيء من امرهما ، غير إقامة الصور فيهما . وكذلك لا يعلم ايضاً كيف يعمل شيء من آلاتها مثل المبرد والمطرقة والسندان وغيرها ، بل تؤخذ أخذاً مسلماً ، على ان عملها مفوض الى الحداد . وكذلك صناعة الطب فانها تنقسم جزئين علمي وعملي ، وكلا هذين الجزئين هذه حاله ، فانه ليس يتعلم « صنع »[1] المكوى ، ولا كيف يصنع المبضع ، ولا غيرهما من الآلات ، بل يتولى ذلك أهل صناعة أخرى . ولا في الجزء العلمي ايضاً يؤخذ في مبادئه ، بل يؤخذ اخذاً مسلماً فيه ، مثل انه ليس يُبحث عن الحرارة والبرودة لِمَ كانتا فاعلتين ، والرطوبة واليبوسة لِمَ صارا منفعلتين .

كذلك من أراد ان يتعلم البلاغة لم يلزمه مع تعلمها ان يتعلم أدواتها التي لا تتم الا بها ، ولا ان يبحث عن معانيها وموضوعاتها التي يحتاج الى ضرورة فيها ، كما لا يلزم غيرها من الصناعات التي ذكرنا . فانه لو لزمنا البحث عن موضوعات البلاغة ، وتعلم أدواتها لاحتجنا الى النظر[2] في اللغة والنحو ، وتعلم القياس والجدال مع تعلمها ، فطال ذلك وأدخلنا في الصناعة ما ليس منها فنقول الآن .

انا لما قلنا فيما مضى من المقدمة عند تعريفنا ما البلاغة ، انها ليست الفاظاً مجردة ،

---

(١) الكلمات الموضوعة بين هلالين صغيرين هي من زياداتنا لفهم المعنى .

(٢) وجد في هامش الاصل ما يأتي : اقول هـذا موضع النظر لان النظر في اللغة واجب حتى يستعمل ما كان أدور « على اللسان » فيقع فصيحاً ، وكذلك النحو لانه لو أهمل امر النحو فلا يكون التركيب مستقيماً ، وكيف لا والبلاغة شرطها معرفة هذه الأحوال مع أشياء أخر » . وهامشة أخرى في المعنى ذاته : «انظر الى قوله لاحتجنا الى النظر فان فيه نظراً لانه يصرح بعد في بحث الاستعارة بقوله : ومن عيوبها ان تكون ملحونة خارجة على غير أسلوب الاعراب فكيف يكون عيباً وهو شرط عدم معرفته اللهم الا ان يريد بالاحتياج الاحتياج التام فتأمل اه .

ولا معاني قائمة في النفس مفردة ، بل أقوالاً يعبر بها عن المعاني — وجب ان يكون الاضطرار دافعاً الى التوسع في اللغة التي مجراها مجرى الموضوع لصناعة البلاغة لتعذر للبليغ [1] اللفظ ، ويحدث عند الحاجة) ما يستعمله في البيان عن المعاني ، على سبيل الناظم لجواهر المرصع بها ما يقصد الى ترصيعه ان يكون معه جميع أصنافها ، وكذلك سبيل البليغ في حاجته الى الألفاظ .

فاما المعاني فالاضطرار اليها في البلاغة أشد منه الى الألفاظ ، وذلك ان المعاني هي الأغراض المقصودة للعبارة بالألفاظ ، والألفاظ مرتبة في مراتبها[2] لان المعاني اربعة مراتب : احداها أعيان الامور ، وذوات الاشياء التي توجد تلك المعاني فيها ، ثم بعد هذه المرتبة المعقولة التي تقوّم معاني الموجودات في تصورها ، ثم الألفاظ التي تعبر عن تلك المعاني المتصورة في العقل بها ، ثم الحروف الموصوفة للخط الذي يكتب تلك الألفاظ بتأليفها .

فالبليغ الكامل هو الذي تكون الألفاظ عنده عتيدة غزيرة ، والمعاني في نفسه جمة كثيرة ، فانه مع ذلك يجيش بحره ، ويسهل الكلام والكتاب عليه .

والذي يجب على البليغ في استعمال الألفاظ ان تكون سمحة سهلة ، لها حلاوة وطلاوة ، وعليها رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، فلا يكون متوعراً وحشياً ، ولا ساقطاً عامياً ، ومن نعوتها تصيير الاجزاء متناسبة الوضع ، منقاسمة[3] النظم ، متعادلة الوزن ، متوخى في كل جزئين منها ان تكون مقاطعها [4] على حرف واحد في التسجيع ، اوحرفين متقاربي المخرجين من الفم ، فان انضاف الى ذلك ألفاظ الجزئين المتزاوجة مسجوعة كان أحسن ، مثل ما قال ابو علي البصير في بعض كلامه : حتى عاد تعريضك تصريحاً ، وتمريضك تصحيحاً ، فأتى بجزئين متقاربين ، متوازيين ومسجوعين بالحرف نفسه ، وهو الحاء من غير استكراه ولا تعسف وتزاوجي الألفاظ مسجوعيها حيث

---

(١) جعلنا العبارة التي تعذر ايرادها على وجه مفهوم صحيح بين هلالين كبيرين .

(٢) في الاصل المركب بدل المرتبة والمراكب بدل المراتب ولعل الصواب ماصححناه .

(٣) لعله متناسقة . (٤) خ مقطعاتها .

جعل بازاء التعريض من الجزء الاول التريض من الجزء الثاني ، وذلك سجع بحرف الضاد و بازاء التصريح التصحيح بحرف الحاء ، فان لم تتوجه هذه المنزلة وهي أحسن المنازل فما دونها وهو السجع بالحرف نفسه فيما ضارعه وخرج قريباً من مخرجه كما كتب بعض الكتاب :

« اذا كنتَ لا تؤتى من نقص كرم ، وكنتُ لا أوتي من ضعف سبب ، فكيف أخاف منك خيبة أمل ، اوعدولاً عن اغتفار زلل ، اوفتوراً عن لمّ شعث واصلاح خلل » ·

فوضع نقص بازاء ضعف ، وكرم بازاء سبب ، وعدول بازاء فتور ، مناسبة في وضع الالفاظ ، وموازنة بينها ، والا فقد كان يمكن ان يقال مثلاً : مكان نقص قلة ، ومكان سبب شكر ، ومكان فتور تقصير · فلم تكن الألفاظ حينئذٍ تتوازن ، وان لم يتسهل ايضاً ان يكون الجزآن متوازنين في القدر ، فليكن الجزء الأخير أطول ، فان تعدى حتى تكون الألفاظ مضرّسة (١) ، والأجزاء مجتمعة ، وأواخرها غير مسجوعة لابحرف واحد بعينه ، ولا بحروف متضارعة ، فذلك خروج عن حد البلاغة ·

ورأيت قوماً يذهبون الى كراهة (٢) السجع والإزدواج في الكلام ، من غير أن عرفت لهم في ذلك حجة ، فعلمت انهم ذموا مارامو فلم يصلوا اليه ، وتعاطوه فلم يقدروا عليه ، والا فهذا القرآن وكلام الرسول وهما مسجوعان ، فاما الذي في القرآن فاكثر من ان يحاط ، اذ كان مبناه عليه · واما كلام الرسول فكقوله في عوذة سبطته : أعيذك من الهامة والسامة ، وكل عين لامة · ألا ترى انه في أصل اللغة ملمّة ، فرام المقاربة فقال لامة : وقال : خير المال مُهْرة مأمورة (٣) ، وسكة مأبورة · وهو في اصل اللغة

(١) هل يريد يا تُرى بقوله المضرسة ما ورد في اللغة من ان المضرّس نوع من الوشي فيه أشكال أضراس · (٢) في هامش الاصل : لعل قول من قال بكراهتها محمول على انه اذا كان لايحصل الا بتكلف لا مطلقاً فان علماء البيان قالوا : انما يقبل اذا كان سجية · وجهة هذا انه بالتكلف يخرج عن السلاسة والفصاحة كما لا يخفى ·
(٣) أمر الرجل كثرت ماشيته والاصل مؤمرة على مُفعلة ومعناها كثيرة النتاج والنسل ·

مُؤْتَمرة . فعدل عنها الى مأمورة وقال : ارجعن مأزورات[1] من الواو الى الهمزة ، لانه من الوزر كما كان مأجورات بالهمزة .

ومن نعوت الألفاظ الاشتقاق والمضارعة ، فالمشتق مثل ما قال خالد بن صفوان للعبدي : هشمتك هاشم ، وأمتك أمية ، وخزمتك مخزوم ، فأنت ابن عبد دارها ، ومنتهى عارها ، تفتح لها الأبواب اذا أقبلت ، وتغلقها اذا أدبرت .

فمثل هذا في الكلام الموزون ، بازاء هذا المنثور كثير ، و يسمى التجانس[2] . وقد شرحت حاله في كتاب الشعر .

فاما المضارعة : فكالذي جاء في الاثر إياكم والمشارة فانها تميت الغرة ، وتحيي العُرّة . وكقول محب لمن قال : خصصتك بخصصتي ، بل انا خسستني . و كقول الآخر عولت لدي على مالي وآمالي .

ومن نعوت الألفاظ التبديل[3] وهو ان يقدم في الكلام جزء ألفاظه منظومة نظاماً تاماً ، فيجعل ما كان مقدماً في الاول ، متأخراً في الثاني ، مثل قول من قال : اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك . وكقول[4] الآخر : اسودّ مني ما كنت أحب ان يبيضّ ، وابيضّ مني ما كنت أحب ان يسودّ ، واشتد مني ما كنت أحب ان يلين ، ولان مني ما كنت أحب ان يشتدّ » . وكقول الآخر : اللهم أغنني بالفقر اليك ، ولا تفقرني بالاستغناء عنك .

ومن نعوت الالفاظ الاستعارة وهي كقول القائل : ما زال يفتل في الذروة والغارب

(١) في الكلام نقص وهو ارجعن مأزورات غير مأجورات فعدل عن الواو الى الهمزة . (٢) يعني المجانسة كذا في هامش الأصل . (٣) و يسمى طرداً وعكساً — كذا في هامش الأصل . (٤) وهو قول معن في مسائله معاوية كذا في هامش الاصل .

(٥) ومن امثالهم قولهم ما زال من فلان في الذروة والغارب اي يدور من وراء خديعته . قال الصغاني : الفتل فيه اي في المثل يفعله خاطم الصعب من الابل يختله بذلك فجعله مثلاً للمخادعة والازالة عن الرأي . والذروة أعلى الشيء والغارب ما بين سنام البعير وعنقه .

حتى لفته عن رأيه . وكقول الآخر : النبيذ قيد الحديث [١] وكقول الآخر : فلان أملس ، ليس فيه مستقر لخير ولا شر . وكقول الآخر : لا تخدش وجه رضاك بالتوبيخ [٢] . وفي نعت القلم لعبدالله بن المعتز : يخدم الارادة ، ولا يمل الاستزادة ، يسكت واقفاً ، وينطق سائراً ، على ارض بياضها [٣] مظلم ، وسوادها مضيء [٤] .

ومن عيوب الألفاظ ان تكون ملحونة جارية على غير الإعراب والسبيل المبني عليه الكلام ، ثم ان تكون بشعة مستوخمة ، مضادة لما تقدم من نعوتها ، ثم ان تكون ذات تعقيد . وفي وصية بشر بن المعتمر : إياك والتوعر ، فانه يستهلك معانيك ، ويمنعك من مراميك .

ومن عيوب الألفاظ التجميع ، وهو ان يكون مقطع الجزء الاول من الجزئين المتتاليين على وزن ما ، فيؤتى بالتالي له على وزنه ، ومنافراً في النظم له . مثل قول حميد بن سعيد في اول كتاب من كتبه : فوصل به ما يستعبد الحر ، وان كان قديم العبودية ، ويستغرق الشكر ، وان كان سالف فضلك لم يبق شيئاً منه » . فالمقطع على العبودية منافر للمقطع على منه .

ومن عيوبه ان يؤتى بالجزء الاول طويلاً ، فيحتاج الى إطالة التالي له ضرورة ، فيصيره اما مثله في القدر ، اوزائداً عليه ، فيضطرب حينئذ ويظهر عليه سيماء التكلف .

ومن عيوبه التكرير وهو ان تعاد الكلمات أنفسها ، او حروف الصلات والرباطات وما جرى مجراها في المدة القريبة . فأما إعادة حروف الصلات والرباطات فمثل له وعليه او منه عليه او به له . فان فصل بين الحرفين بكلمة زال قبحه مثل ان يقال أقمت عليه شهداء به .

ومن عيوبه ان يركب من الوحشي المتروك استعماله ، الثقيل في المسمع .

« للبحث صلة »

---

(١) لعل المعنى ان الحديث في مجلس النبيذ سر فكأن النبيذ قيدله عن الافشاء .

(٢) في هامش الاصل والأحسن ان تقول لا تخدش وجه رضاك باظفار التوبيخ .

(٣) في هامش الاصل اي بسواد المداد . (٤) في الهامش اي ببياض المعاني .

قبة جامع القيروان الكبير وسقوفه

للسيد جورج مارسه (عضو المجمع العلمي العربي في دمشق) طبع في تونس وباريز ١٩٢٥ ص ٦٠ و٢٨ رسم و٣٣ لوحة مصورة :

Coupole et Plafonds de la Grande Mosquée de Kairou - an par Georges Marçais, Tunis et Paris 1925

هذا التأليف هو بحث لسلسلة أبحاث تُعنى بنشرها ادارة الآثار القديمة والفنون الجميلة في تونس وهي ايضاً تبحث في آثار تلك البلاد والمدنيات التي تعاقبت عليها وقد وضع المؤلف تأليفه هذا ليكون احدى حلقات هذه السلسلة وضمنه بحثاً جديداً عن قبة جامع القيروان وسقوفه ذاكراً الأيدي العاملة التي تداولت عليها في أزمنة مختلفة خلال اربعة قرون (اي من القرن الثالث الى السادس هـ) . ومع ندرة الوثائق التاريخية من مطبوعات ومخطوطات وغموضها تمكن المؤلف باقتداره وقوة استنباطه من ايفاء هذا البحث حقه مسترشداً بما بقي في الجامع من آثار تلك العصور من نقوش وزخارف معارضاً بينها وبين ما بقي من أمثالها في العراق ومصر والشام . وأظهر بعد تحقيق وتدقيق ما كان غامضاً وما عسر على غيره ادراكه . فجاء هذا البحث تتمة لما نشره الاستاذان فلوري (S. Flury) وسادالان (H. Saladin) عن بناء هذا الجامع ومحاسنه .

وبعد ان وصف المؤلف القسم العلوي من المحراب وزخرف عقده المزين برسوم غصون الكرمة وعناقيدها (لوحة ٨) بحث في الزمن الذي رسمت فيه تلك الرسوم مسترشداً بما يماثلها في غير هذا البناء في سائر المدن العربية . ولما لم يهتد لشيء يستعين به على إدراك غايته استدرك ذلك متسائلاً عما اذا لم يكن هنالك بعض الشبه بين رسوم هذه الكرمة (شكل ١) وتلك الأخرى المذهبة التي وصفها مؤرخو العرب وقالوا انه كان يزدان بها جدار قبلة الجامع الأموي في دمشق . وقد اكتفى المؤلف بهذا السؤال اذ لم يجد ما يؤيد به نظريته لان الحرائق التي انتابت جامع دمشق منذ ذاك العهد ذهبت بكرمته وجميع محاسنه حتى لم تبق فيه شيئاً من زخارف ذاك العصر حتى يسترشد بها .

كنت افضل ان أمرّ بهذا البحث دون ان أقول كلمة فيه لو لم أجد مستنداً يؤيد نظرية المؤلف . وقد عثرت في دار الآثار العربية في دمشق على لوحة رخام (شكل٢) عليها نقوش نافرة (رقم ح ٨٨) التقطت من بين أنقاض الجامع الأموي ولعلها من بقايا كرمته الموصوفة ، على الرغم من تأثير الحريق الذي سودها ، فان نقوشها محفوظة واضحة ، وظاهر عليها اثر الذهب المطلية به . و يرى الناظر اليها أغصان الكرمة وعنقودها كالتي في جامع القيروان حتى يُخيل للناظر اليها كأنهما من صنع صانع واحد ، غير انهما اختلفتا باختلاف سطح الجدار لذي رسمتا عليه . فبينا ترى كرمة القيروان على سطح مقعر نرى كرمة دمشق على سطح مستو ، هذا من جهة ومن جهة أخرى رسمت كرمة القيروان بصباغ على خشب وكرمة دمشق بحفر ناتيء على حجر . و يستفاد من كتابة المؤلف ان الفن المعاري العراقي والمصري والشامي ظاهر في بناء جامع القيروان وهذا يحملنا على الاعتقاد بانه كان بين عمال تونس من هم من تلك البلاد ولا يبعد ان يكون صانع المحراب دمشقيًا متأثراً بمنظر كرمة بلدته فاتخذها انموذجًا نسج على منواله . ولا ريب بان كرمة دمشق هي الأصل في هذا الباب ، وما كرمة القيروان الا نسخة عنها ، لأن جامع القيروان أنشئ سنة ٢٢١ هـ . وجامع دمشق حوّل الى مسجد في سنة ١٨٧ و١٨٨ هـ . وجميع من وصفوا كرمة دمشق متفقون على انها من عهد الوليد وهو الذي أنفق عليها سبعين الف دينار كما ذكر ياقوت في معجم البلدان .

ولا يخفى انه لم يطرأ على جامع دمشق تغيير الا بعد حريق سنة ٤٦١ هـ لما دثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الصناعات النفيسة ومن جملتها الكرمة المذكورة .

ان اللوحة المحفوظة في دار الآثار هي ولا شك قطعة من هذه الكرمة ، وان صح ذلك فيكون أصلح جواباً للمؤلف . واعتماداً على ما تقدم نقول بلا تردد ان كرمة القيروان هي نسخة من كرمة دمشق ، وهي من أقدم آثار جامع القيروان كما ان كرمتنا من أقدم آثار مسجدنا .

مدير دار الآثار

جعفر الحسني

مطبوعات حديثة

شعراء النصرانية

« بعد الاسلام »

القسم الثالث في شعراء الدولة العباسية تأليف الاب لويس شيخو اليسوعي

طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٢٧ م

حوى هذا القسم ترجمة اربعة واربعين شاعراً نصرانياً ، او رجح المؤلف انهم نصارى ، معتمداً على أمهات الكتب المطبوعة في الشرق والغرب من كتب العرب في التاريخ والادب . ومما نقل عنه من المخطوطات « جمهرة الاسلام ذات النثر والنظام » لعميد الدين ابن الغنائم مسلم بن محمود الشيرازي و « اخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء » للملك المنصور صاحب حماة المتوفى سنة ٦١٧ ﻫ (١٢٢٠ م) وكلاهما من مخطوطات خزانة ليدن . و « دمية القصر وعصرة اهل العصر » لابي الحسن علي الباخرزي ، ومقامات يحيى بن ماري وكلاهما من مخطوطات خزانة الامة في فينا . و « بغية الطلب في تاريخ حلب » لكمال الدين الحلبي . وتذكرة العلماء والشعراء للمملوك تاني بك الخزندار وكلاهما من مخطوطات لندرا . الى غير ذلك من المظان المعتبرة . وقد نسق المؤلف الاستاذ كتابه واستقصى في جلب المواد الا اننا لاحظنا عليه انه غمط حق المسلمين في الحرية التي أطلقوها لابناء ذمتهم ولو كان تعصب خصومهم المسلمين كما قال في المقدمة الافرنسية كما زعم وان النصرانية ذلت في الدول الاسلامية لانقرض النصارى من الشام ومصر والعراق لا محالة ، بيد اننا رأينا خلفاء المسلمين وملوكهم وامراءهم وأعيانهم وعلماءهم ولا سيما في عهد العباسيين يفتحون صدورهم وقلوبهم للمسيحيين والاسرائيليين والمجوس ، وما أهين احد لنحلته بل أهين المتطاول الى ما ليس من شأنه ، على ما هو الحال في كل دولة وملة وعصر ، ولو كان التعصب الذي يذهب المؤلف الى تأصله في العصر العباسي عند المسلمين أكان اليوم يستطيع هذا المؤلف ان يدون سيرة اربعة واربعين شاعراً نصرانياً بأخذ كلامهم وتراجمهم من كتب المسلمين ، والمسلمون هم الذين رفعوا من

شأنهم وعاشروهم وأدخلوهم مجالسهم وائتمنوهم على حريمهم . ثم نوهوا بهم في كتبهم كما نوهوا بابناء مذهبهم . وخلدوا ذكرهم وما ترثم كأنهم ابناء عم خلّصاً ، فأين التعصب الموهوم بعد هذا ؟ ولماذا نرثي نظلوم بزعمنا ولا نسأل عن السبب الذي دعا الى ظلمه . اذا أحببنا الانصاف نذكر المسائل باعيانها ، ولا نرسل الكلام على إطلاقه ، مثال ذلك في كتاب الاب شيخو نفسه فقد ذكر ترجمة ابن بُطلان المسيحي الذي زار بعض مدن الشام في سنة ٤٤٤ هـ ؛ ونقل ياقوت وابن القفطي طرفاً صالحاً من رحلته واقتبسها المؤلف ، وحذف مافاته ابن بُطلان في «اللاذقية» وكانت في يد الروم سنة ٤٤٦ هـ وخلاصة ماقال انهم كانوا يتزايدون في حلقة المدينة مدينة اللاذقية على مبيت المومسات عند الغرباء او الراغبين في الخنا ، و يأخذ كل من يريد العبر من المحتسب خاتم المطران حجة معه ، واذا وجد انسان مع خاطئة وليس معه خاتم المطران ألزم خانه ! فمثل هذه القصة التي عدها ابن بُطلان «أعجوبة» لانه لم يرها في بلاد الاسلام ، هل يمكن ان نتخذها حجة على فساد أمة او على فساد نحلة . الشذوذ موجود في كل مجتمع ، والعبرة بالسواد الاعظم ، والعدل يقضي على المؤرخ بالانصاف على كل حال .

محمد كرد علي

بيروت

«تاريخها وآثارها»

بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٧ (ص ١٤٠)

وهذا من التآليف الجديدة التي عني الاستاذ شيخو بوضعها على نسق جديد عامداً الى مصادر مهمة استقى منها ووضعها في قالب مقبول في تاريخ ثغر الشام وآثارها وقد زين كتابه ببضعة رسوم . ومما نلفت نظر المؤلف اليه ان كلامه على عمل الطوائف غير المسيحية في بيروت على عهدها الاخير ناقص قليلاً ، وقد نقل عن الجغرافي اليعقوبي انه كان في عرقة وطرابلس قوم من الفرس وان اهل كور جبيل

وبيروت وصيداء كنها قوم من الفرس نقلهم اليهما معاوية بن ابي سفيان . وأردف المؤلف هذا القول بقوله : « ولا شك ان المتاولة الشيعيين والنصيريين الذين في سواحل الشام حتى يومنا من ذرية هؤلاء الفرس » . ولعل غيرنا من الباحثين يحقق هذه القضية فان لنا شكاً فيها . ونثني على همة الاستاذ المؤلف لما يعانيه في تأليفه وابحاثه من الجهد والعناية . م . ك

كتب ورسائل مختلفة

(١) التقرير الصحي السنوي لمديرية الصحة العامة في العراق خلال سنة ٢٥ و١٩٢٤ و١٩٢٤ — ١٩٢٣ .

(٢) حكاية ذي القرنين لابي مراثيد الحميري وقصة الصنم والملك وابنته نشرها السيد (اميليو غرسيه كومز) مع ترجمتها والتعليق عليها باللغة الاسبانية طبعت في مجريط سنة ١٩٢٦ .

(٣) مملكة جهنم والخمر للفيلسوف تولستوي . نقلها الى العربية عن الروسية السيد سليم قبعين صاحب مجلة الاخاء . والطبعة الثانية في المطبعة التجارية الكبرى في القاهرة (ص ٨٨) .

(٤) « درر الحكام شرح مجلة الاحكام » الجزء الثاني تأليف السيد علي حيدر تعريب المحامي الاستاذ فهمي الحسيني صاحب مجلة الحقوق طبع في مطبعة الحقوق بيافا سنة ١٣٤٥ — ١٩٢٦ .

(٥) « كتاب القراءة » للعلامة كراتشقوفسكي لتعليم اللغة العربية لابناء روسيا طبع في لينينغراد سنة ١٩٢٦ (ص ٤٤) .